UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234040

UNIVERSAL
LIBRARY

السيد الشيرازي

حياته وعصره، آثاره وأدبه، آراؤه في

الدين والأخلاق، السياسة والاجتماع

بقلم

الدكتور ظهير الدين أحمد

خريج كلية "دار العلوم" بمصر وحيدر آباد

ليسانسيه في الفلسفة والآداب من "الجامعة المصرية"

ودبلوم في الأدب الفارسي من جامعة بنجاب



السيد الشيرازي



السهدى الشيرازى

الفهرست

(١) الجزء الخاص بحياة السعدي (١)

اسمه ومولده -١- حياته في نصيبين عام ولادته -٢- نشأته -٧-
المعارف التي تلقاها في صغره -٩- فضل أم حليمه -٩-

(٢) العوامل التي كانت سبباً في تكوين السعدي (١٠)

العامل الأول :- والد السعدي -١٢-
العامل الثاني :- كبار المتصوفين والأدباء في شيراز -١٥-
العامل الثالث :- البيئة -١٩-
العامل الرابع :- الأخلاط -٢٢-
العامل الخامس :- المدرسة النظامية وهي من العوامل الهامة لبغداد -٢٥-
العامل السادس :- وهو الخاص بالأسفار -٣١-

(٣) عودة السعدي إلى وطنه (٤٠)

هموم السعدي -٥٣- مذهب السعدي -٥٥- شيخوخته -٥٧-
وفاته -٦١-

محمد حيدري

(٤) شهرة السعدي حياً وميتاً (٦٥)

شهرة السعدي في حياته (٦٥) - أسباب شهرته (٦٤) - ذيوع صيته في مختلف الأصقاع (٦٤) - آراء الكتاب والشعراء فيه (٦٥) تسامح معدوداً من شهرته (٦٨) شهرته بعد وفاته (٧٠) - اهتمام أوروبا بالسعدي (٧٠) أسباب شهرته في أوروبا - (٧١) رأي كتاب أوروبا وفلاسفتها في السعدي (٧١) العناية به السعدي وبيه هوراس آثار السعدي في الشرق والغرب (٧٢).

(٥) آثار السعدي (٧٧)

الرسائل المنثورة (٧٩) - البستان (كريما) (٧٩) - قصائد الفارسية (٨٠) - الملمعات (٨١) - المثلثات (٨٢) - الترجيعات (٨٣) - القصائد العربية (٨٤) الطيبات (٨٥) - البدائع (٨٥) - خواتيم (٨٥) - القصائد الغزلية القديمة (٨٦) - الصاحبية أو الصاحبيات (٨٦) - الخبيثات (٨٦) - البستان (٨٧).

(٦) السعدي والمجتمع (٩١)

الطفل (٩٢) - المرء مع جاره وصاحبه وغيرهما (٩٧) - السعادة في نظر السعدي (١٠٤) - المال (١٠٨) - الصبر - (١١٠) الشجاعة والعزيمة (١١٢) اللطف والإحسان (١١٤) - معاملة المرء للناس (١١٤).

(٧) السعدي والسياسة (١١٩)

هل السعدي متكلم في الكلام عن السياسة (١١٩) - الملكية والسعدي (١٢١) -

مأساة تربية الطفل (١٣١) - الصفات الذاتية بالكمال (١٣٢) - العدل - (١٣٣) - الرحمة والرفق والبر (١٣٤) - المفاوضة الرابعة الدرجة الضرورة للتعلم (١٣٥) - القاعدة الأولى الذاتية بالكمال (١٣٦) - القاعدة الثانية الرحمة والرفق (١٣٧) - القاعدة الثالثة المتعلقة بالكرامة (١٣٨) - القاعدة الرابعة الخاصة بالعلم (١٣٩) - الصفات الرحمة والتي تجيب أن تتوافر في المعلم (١٤٠) - عناية المعلم بنظافة الملابس (١٤١) - بعد النظرة في كل شيء (١٤٢) - الخروج الستة (١٤٣) - الملك والحادث (١٤٤) - ضرورة التخلص من العدو الداخلي (١٤٥) - الدعوة لترغيب الصعوبة ومكافأة الجميل (١٤٦) - العفو (١٤٧) - العناية بخلق الضمير (١٤٨) - ضرورة التخلص من الملك المسيء (١٤٩) - أعداء الملك الخارجيون ووجوب التخلص منهم (١٥٠) - نصيحة الحكماء للملوك (١٥١).

(٨) نظرة عامة على المجتمع (١٥٢)

سعادة المجتمع - سعادة النفوس وطهارة الأخلاق (١٥٣) - أصل السعادة التفاؤل (١٥٤) - أمساك المجتمع الحرية والشرف (١٥٥) -

(٩) السعادة وأنواعها (١٥٦)

الخير والشر (١٥٧) - رأي في الحياة (١٥٨) - النفس مستقلة عما حاصا (١٥٩) - النفس تحت سيطرة العقل والقلب (١٦٠) - العلم والجهل (١٦١) الاستقلال بالنفس (١٦٢) الصناعة والدين (١٦٣) - النفس مرتبطة بجسمه

مجيء عدادها (١٤٣) - الطيبة (١٤٤) - وسائل الطيبة (١٤٥) - المعوذ (١٤٦) - الذكرى الحسنة (١٤٦) - ماوضع ما قيل (١٤٧).

(١٠) **عقيدة السعدي** (١٤٨)

بالنبي ﷺ (١٤٨) - الصيام بالطيبة (١٤٨) - نظرة الكتاب (١٤٩) - بالنبية للقضاء والقدر (١٥٠) - بالنبية للتصوف (١٥٢) - رأي ابن خلدون في التصوف (١٥٤) - ظهور المذهب الصوفي (١٥٥) - الخلافات الجوهرية بين السهروردي والغزالي (١٥٦) - ماهية التصوف وتعريفه للغزالي (١٥٧) - مناقشة الغزالي في تعريفه (١٥٨) - الخلاف بينه وبين السعدي في التصوف (١٥٩) - منزلة السعدي من التصوف (١٥٩) - مذاهب التصوف (١٦٠) - التصوف عنده فطرة يعبر بها عن مذهبه في الأخلاق ١٦١ - ميزة عن الأطهار (١٦٥) - علاقة الإسلام بمذهبه الصوفي (١٦٣).

(١١) **السعدي وفن الكتابة** (١٦٥)

الوصف الذي صاحب طريقة الكتابة (١٦٥) - إشتهار الذهبية جاء ذكرهم في التاريخ والذهبية ذكرهم السعدي ١٦٦ الفكرة والصورة (١٦٧) - أساليب كتابة (١٦٨) - المقابلة (١٧٠) - الأبيات والنغم (١٧١) - المبادرة بها الأغراض (١٧١) - إجراء الخواطر على لسان الأحياء والأموات (١٧٥) - الخواتيم (١٧٤).

(١٤) **أغراض السعدي الشعرية** (١٧٥)

ميزة الكتاب والشعراء (١٧٥) - طابع السعدي الخاص (١٧٦) - غرامه بالطبيعة (١٧٨) - السعدي والحب (١٧٨) - شعر الغزل (١٨١) - شعر الوصف (١٨٥) - الندم على الشباب (١٨٥) - أسباب السعادة: نظرته الدينية التشاؤمية (١٩٠) - التأمل في الحياة والرحمة بالمتألمين (١٩٦) - المراثي (١٩٧).

(١٥) **أسلوب السعدي** (٢٠٣)

كلمة تمهيدية (٢٠٣) - البساطة والوضوح (٢٠٥) - ارتباط الصورة بالمعنى (٢٠٦) - التوسع في التصوير (٢٠٧) - الصور المركبة (٢٠٨) - استعمال التشبيه والمجاز والمقابلة وغيرها (٢٠٨).

(١٦) **حكم السعدي على عصره** (٢١٢)

كلمة تمهيدية (٢١٣) - إقبال الناس على شيراز (٢١٥) - الحياة في شيراز (٢١٥) - الحمامات (٢١٥) - أسواق شيراز (٢١٦) - البساتين والأسواق (٢١٧) - مشارب القهوة (٢٢٠) - الملاهي (٢٢٠) - طريقة الحياة عند كبار الناس وعند الأمراء (٢٢٠) - كلمة هؤلاء من قلب الشعب (٢٢١) - مظاهر الانحلال المختلفة (٢٢٢) - رأي السعدي في عصره ومعاصريه (٢٢٣).

تصاویر

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

يحتفظ تاريخ الأدب الفارسي منذ الفتح الإسلامي
واعتناقه أهل إيران دين الإسلام بذكر رجاليه
يمتاز كل منهما بابتكار خاصة انفرد بها دونه جميع
أدباء الأمة الإيرانية . أولهما الشاعر المؤرخ
الفردوسي (٣٢٠-٤١١هـ) (٩٣٢-١٠٢٠م) صاحب الشاهنامة
المعروفة وهي مجموعة شعرية تمثل حوادث وأخبار الأمم
الذين عاش فيهم والتي أكمل نظمها سنة ٤٠٠هـ
وهي أبلغ ما نظم وأرقى ما كتب باللغة الفارسية في الأدب
الفارسي كله بعد نظم التواريخ المطولة ولم يقم في بلاد
العرب وإيران شاعر ألف في نظم التاريخ
كهذا الإيراني الشهير الذي بلغ ما نظم من الأبيات

ما في أسلوب السعدي من تآخذ العقل الرجيح مع التصور السامي والفلسفة الدقيقة مع سلامة الذوق والسمو بالأخلاق على طريقة عملية واضحة فقال عنه:

« إن السعدي في الحقيقة رجل منا » بل زاد على ذلك أيضا « إنه ليس منا فحسب بل إنه من المواهب النادرة جديرة أن يكون للعلم والأدب نصيب كبير من تراث قلم صاحبه.

وكذلك يقول فيه بابيه دي مينار الكاتب المستشرق الشهير:

« إن كثيرا من مأثورات السعدي تذكرنا بدقة هوارس وهو فيه رشيقه كاتولس وفيه وتحمس ساخر كرابليه وبسيط سهل كلافونتين ».

وقد مكنته حياته الاجتماعية وشدة اختلاطه بالناس ودراسته لنفوسهم وعاداتهم وماضيهم وحاضرهم وبالأخص لتاريخ الإسلام من أن يطول

تأمله في نفسه وفي بني جنسه فيستخرج فلسفة حيوية موضوعها الأخلاق والمجتمع.

***

ومن الطبيعي أن يتساءل الكثيرون عن العامل الذي على اختيار السعدي وجعله موضوعا لبحثي دون الفردوسي وهو سؤال وارد كان وجيها إلا أنه القارئ يجد جوابه في الأزمة الأخلاقية التي نعيشها فيرى بينه تعارضا.... ونحن أحوج ما نكون في الوقت الحاضر إلى بعث أخلاقي منه إلى بعث تاريخي

ومن هذا الذي يجد الحكمة وجمالها وأسرارها عند متناول يديه ولا يهرع بالإقبال عليها والاسترشاد بها وأنا شاب في ربيع التعلم والكتب من طريقه الدرس ولذلك كان إقبالي على السعدي من هذه الوجهة سببا من أهم الأسباب وأنا أحبب غرضه بحب واحد فاكتب عنه وأغدو



اندفنه تحت ثقل القرون من عهد طويل دليل ناطق
بأنه رجل غير عادي وأنه عبقرية تضعه في حظيرة
العظماء من الرجال

وربما كانت هذه العناية من أكبر أسباب
النهضة الغربية التي دفعت بجهود أبنائها العاملين
إلى التنقيب عن كنوز العقول والألكانت ثوت في
ظلمات الأيام الغابرة دفينة في تراب الإهمال
والنسيان لا فرق بينها وبين أدنى العقول البشرية
كما لا فرق بين الذهب والخزف الرخيص معه ما لم تقع
عليهما العيون كما يقول السعدي في بعض قطعه.

* * *

وما الفتنى إلى مبلغ هذا الوعي عندهم عنايتهم
بوضع الكتب في بحث عظماء الناس من الوجهة
النفسية وعلى الأخص كتاب وقع تحت يدي للعلامة
و. اوستولد W. Ostwald. الأستاذ في جامعة

لبيزيج . أعجبني السبب في وضعه لأنه طالبا بابانيا
في سلك تلك الجامعة سأله : كيف يمكنه الاهتداء
إلى نوابغ المستقبل بمجرد النظر إلى صغار الطلبة
حتى أنه هذا الأستاذ سأله عن السبب الذي
دفعه إلى هذا السؤال المدهش وكان بظنه أنه مجرد
خاطر قام لفكر هذا الطالب فإذا به مطلب سابق
فكرت فيه حكومة دولة اليابان فخصصت مبلغا وافرا
من المال في سبيل إرشاد الفقراء من أبناء الذين
يمكنهم التنبؤ بنبوغهم فيما بعد وليس هنا مقام الإفاضة
في موضوع هذا الكتاب أو غيره لأنه ذلك بعيد عن
غرضنا وإنما ذكرناه إشارة إلى مقدار كبار الرجال
على وجه عام وإلى ما بلغت عناية أولئك القوم
من تأثر النبغاء حتى وهم في سن الطفولة ليمكنه
لهم تعهد هذا النبات وتمكينه من النمو بما يحيطونه
به من صارة الرعاية والاستفادة

وإذا كان هذا سبيلهم مع هذا الغراس
الفكري والعلم ينضج ويثمر بعد فكيف نقصد
نحله الشرقيه منه تناول جناه وهو ناضج
مثمر دانى القطوف .

* * *

وإذا كنت تملأ نفسى النشوة كلما ذكرت
أننى أحد أولئك الذين نهضوا بالنزعه وجه
هذا الرجل العظيم حتى لا تقوم الحوائل بيه الناس
وبيه آثار حكمه فإنه هنالك نشوة أخرى تهزنى وعملى
هذا سيكونه خير اعتراف منى بجميل وزارة المعارف
العمومية التى كانت سببا فى سلوكى هذا السبيل
إذ أوفدتنى إلى الجامعة المصرية وكلية دار العلوم
بمصر لأتمم دراستى بعد أنه تخرجت منه كلية دار
العلوم بحيدر آباد ومن جامعة بنجاب وحزت منها
على أعلى شهادة فى الأدب الفارسى، فإنى أقدم

إليك ثمرة جهودي الضعيف لأعرب لك عما تكنه
جوانحي من الحب الوفير والإخلاص الشديد بالنيابة
عن الشبيبة الهندية التي تشجعك وتساعدها على
تنمية جهودها العقلية بإنشاء روابط علمية
بينه مصر والهند تقوى أواصرها على مر الأيام
ومما لا نزاع فيه أن هذه خطوة مباركة في
سبيل اتحاد الشرق تبشر بالخير الكثير في المستقبل
القريب ..

***

وإذا كانت لحكومة حيدر آباد فضل على سفيركم
في إنجاز عملي هذا فإنني لا أنسى مضرات أساتذة
الجامعة الأجلاء الذين سقوا نفسي كأسا مترعة من
فضل علمهم الغزير الواسع فكان لهم فضل تقويمي
وتثقيفي لذا كان لزاما علي أن أسجل هنا مع
الإعجاب الشديد بفضل جامعة الجامعة المصرية منه

الذكاء المصرى والعبقرية المصرية ما أضمره من
الاعتراف بالجميل والإخلاص الأكيد نحو
عطف الأستاذ الجليل والبحاثه العظيم الدكتور
منصور فهمى والعلامة الكبير الأستاذ المحقق
محمد الخضرى بك وجميع أساتذتى الكرام.

ظهير الدين احمد

القاهره. إبريل سنة ١٩٢٦ م
رمضان سنة ١٣٤٤ هـ

١

حياة السعد

إسمه ومولده (١) ـ بحث في تعيين عام ولادته (٢) ـ نشأته (٧) المعارف التي تلقنها في صغره (٩) ـ فضل أمه عليه (١٩) .

بسم الله الرحمن الرحيم

السعدي

اسمه ومولده

ولد في شيراز حوالي سنة ٥٨٠ الهجرية حيث سمي شرف الدين عبد الله، وعلى رواية مرشد الدين ابن مصلح الدين عبد الله، واشتهر بلقب «السعدي»، ولقد بحثنا كثيرا فلم نجد بيانا وافيا عن أسرة السعدي، وكل الفوائد التي تحت يدنا عند الكتابة عنه صامتة كلية عن هذه الناحية، ولقد كانت هذه المعرفة تفيدنا كثيرا عندما كنا نتعرض لعبقريته الفياضة على الشرق والغرب فأن معالم يمكن إنكاره من الوراثة من الأثر الواضح في تكوين النشأة، وكل ما يرشدنا إليه المؤرخون وتلك شاه يتحصر في أن أباه كان اسمه عبد الله، وأنه كان في خدمة الأمير سعد بن زنجي حتى أنه أخذ هذه النسبة «السعدي» من هذا الاسم ولكن الذي نطمئن إليه أن السعدي نفسه انتحل لنفسه هذه التسمية اعترافا بالجميل.

وكما أننا نجهل أسرة السعدي ، كذلك نجهل عام ولادته فقد كان مصدر خلاف شديد بين المؤرخين :

ذكر دولتشاه والسر جور أوسلي أنه ولد سنة ٥٨٩ هـ. وهذه الرواية غير صحيحة لأن من المسلم به أن وفاة ابن الجوزي كانت في سنة ٥٩٧ فإذا صح أن السعدي ولد في سنة ٥٨٩ لكان عمره عند وفاة ابن الجوزي ثمان سنوات مع أن السعدي يذكر عن ابن الجوزي أنه كان من كبار أساتذته وأنه كان ينصحه ..... الخ ، وهذا معناه أنه ظل دهشا غير قصير تلميذا له ، الأمر الذي لا يتفق مع سنة ميلاده هذه . رواية دولتشاه والسر جور اوسلي لأنه على هذه الرواية يكون ابن الجوزي توفي حين كان السعدي لا يتجاوز ٨ سنوات .

ومما أن السعدي يذكر أنه درس في النظامية ببغداد على

ابن الجوزى الذى مات سنة ٥٩٧ فلابد أن يكون السعدى توجه إلى تلك النظامية قبل هذا التاريخ ، ولكننا لا يمكننا أن نحدد الوقت الذى ذهب إليها فيه .

وإنما إذا رجعنا إلى أقوال السعدى فى البستان نجد أنه غادر شيراز وهو شاب وأنه أخذ العلم على ابن الجوزى زمنا طويلا لكان لنا مندوحة عن الاعتراض على الأستاذ هنرى ماسى الذى ذهب إلى وضع سنة السعدى بين ٩٦ و ٩٩ سنة . وعلى كل من دولتشاه والرحبو أوسلى الذين قالا بأنه عاش مائة واثنين سنة ، وعلى الأستاذ براون الذى يميل إلى أنه ولد سنة ١١٨٤ م . (سنة ٥٨٠ هـ) وأيضا على من قدر عمره بمائة وعشر سنة .

وسبب عدم أخذنا برأى الدكتور هنرى ماسى أن من الثابت أن وفاة السعدى كانت فى سنة ٦٩١ هـ . فيكون

مولده باعتبار أنه عاش ٩٦ سنة (وهو أقصى ما ذهب في التقدير إليه الدكتور المشار إليه) في سنة ٥٩٧ الهجرية. ولكن ابن الجوزي توفي سنة ٥٩٧ حيث كان السمدي وقتئذ ابن خمس سنوات وهو سن غير معقول بالمرة أنه تلقى العلم قبلها على معلمه المذكور

وعلى رأي الأستاذ براون يكون السمدي قد ولد بعد أن توفي ابن الجوزي بخمس سنوات وهذا مخالف للواقع ومناف لقول السمدي نفسه أنه تلقى العلم زمنا طويلا عليه وكذلك يكون اعتراضنا على الأخذ بالسنة الثانية وهي سنة ١٠٢ لما فصلناه لأنه أقل ما يترتب عليه أن يكون السمدي بدأ يتلقى العلم على ابن الجوزي وصار ابن ثماني سنوات مع أن ابن الجوزي توفي في تلك السنة وبمثل ذلك نكون محقين في عدم الأخذ بأنه عاش سنة ١١٠ لأننا لو أخذنا بها (مع

(١) راجع المقدمة التي كتبها المرحوم في تاريخ وفاة السمدي [illegible]
(منتخب [illegible] وتحقيق [illegible]) والمحفوظة في [illegible]
(ديوان [illegible] وتحقيق [illegible]) والمحفوظة في [illegible]
سنة [illegible] صفحة [illegible]

تسليمنا الصحة السنة التى توفى فيها وهى سنة ٦٩١ عربية)
لوقوع مولده فى سنة ٥٨٠ وعلى هذا الحساب يكون ابن الجوزى
توفى حيث كان عمره ١٧ سنة فإذا فرضنا أنه غادر شيراز وهو
ابن تسع أو عشر سنوات كما هو هذا مخالفا لنص قوله من أنه
غادرها شابا وإذا رجحنا مغادرته إياها لما بعد هذه السن
كان يكون بارحها وهو بين ١٣ أو ١٤ سنة مثلا كان الزمن
الذى قضاه بعد ذلك مع ابن الجوزى فى الدرس قليلا جدا
بينا قصر مع ما ذكره هو من أنه يتلقى العلم عليه زمنا طويلا
وحينئذ نكون فى حل من الأخذ برأى من قال بأنه عمره مائة
وعشرين سنة لأنه عند ئذ ترتفع كل الاعتراضات السالفة
ولا يبقى هنالك مانع من مغادرته شيراز فى أيام شبابه
وفى تلقيه العلم على ابن الجوزى زمنا كافيا ومن التمسك
بهذا الرأى الأستاذ سلفستر ساسى (راجع كتابه عمر شعراء الترك)

ولكننا نرى من الواجب هنا الوقوف لحظة عند ما قرره السعدي من أنه جعل مدينة كاشغر في السنة التي عقد فيها السلطان محمود خوارزم شاه الصلح مع خطا وهي سنة ١١٧٠م (سنة ٦٠٨ هجرية) وأنه صيتها كان قد طار إلى هذه المدينة من قبل حتى أنه حينما دخلها لم يكن أجنبيا بالنسبة لأهلها وهذا القول يجر إلى اعتراضين من السهل دفعهما وهو أن محمود خوارزم شاه توفي سنة ٥٨٩ هجرية لأنه يترتب على ذلك :

أولا — أن الصلح المذكور حصل بعد وفاته ويكون هذا أمرا غريبا

ثانيا — أن تكون شهرة السعدي ذاعت وقت أن كان لا يتجاوز من العمر ثمانية عشر سنة وهي سن لا تتفق مع هذه الشهرة ولا مع ما تقدم بالنسبة لتلقيه العلم على مؤدبه ابن الجوزي.

ولكن يظهر أن السعدي نفسه أخطأ في اسم الشاه الذي عقد الصلح معه خطأ. ولعله أراد علاء الدين خوارزم شاه لأن هذا الأمير في الحقيقة هو الذي عقد ذلك الصلح وهذا يدفع الشبهة السالفة لأن ذلك الصلح وقع سنة ٦٠٨ حيث كان عمره وقتئذ ٥٣ سنة وهي سن تتفق مع ما اتفق من الشهرة في العلم ومع ذيوع صيته بعد ذلك.

نشأته

أما نشأته فقد كان لأبيه تأثير فيه حيث كان يملي عليه أصول التربية الدينية ويبعثه على الاهتمام بالفضائل وسلوك نهج الورع خصوصا فيما يتعلق بالكلام من حيث كثرته وقلته وصدقه وكذبه وغيبته ونميمته، ولقد كان حريصا عليه الحرص كله يلازمه في جميع الأوقات وفي سائر الأمكنة وفي المواسم والأعياد وفي خلوته وجلوته حتى أشرب قلبه حب التخلق بما كان عليه والده من الانقطاع إلى الزهد والعبادة. وكانت المعاملة بينه الأب وابنه على حالة يغلب فيها الزجر والتشدد في النصيحة والموعظة. وإني مقدم إليك شيئا من الحوادث يجد لنا جانبا من سيرته وأخلاقه يعرض لسيدنا على نبوغ الصدى وأنه كان قديرا على استنباط أسمى قواعد الأخلاق من أصغر حوادث حياته، ومن ذلك نرتدي إلى صورة صحيحة مما كانت عليه تلك الحياة.

فقد قال أنه انفرد بأبيه ليلة من الليالي يتلوان فيها القرآن ويقومان بما يقوم به الصابرون المجتهدون فأعجب بنفسه وأخذ

ينتقد السائحين ويفاخرهم بسهره ويقظته وكان أباه راجه بقوله «لقد كان خيرا لك أن تنام مبكرا أن تقطع فيطنك في اغتياب الناس»

وهكذا نلمس في هذه الحادثة عناية أبيه ودقة ملاحظته معه ليطهر نفسه سادا خلرها من الخيلاء والغرور.

والسعدي يحدثنا أيضا في البستان أنه إنما وصل إلى هذه المرتبة كلما ينشد أبيه معه وتعنيف إياه حتى أنه كان يضربه أحيانا على قذاله كلما شعر بانحرافه عن الطريق السوي.

وما أحرى أن يكون مثل هذا وسيلة ناجعة لتقدير الأبناء لآبائهم وحسن ظنهم بهم مع مثل هذه الشدة التي كان مبعثها أن يهذب السعدي على ضخامة العزة وعظمة النفس.

ومع ذلك فقد كان أبوه يصرف أيضا كيف يشجعه ويغرس في حب الكمال من طريق الرغبة ودون الرهبة حتى أنه لما جاءه مرة باللوح والقرطاس أعطاه أيضا خاتما من الذهب، وهكذا نرى أن شدة الآباء على أبنائهم في مثل تلك القرون كانت لا تخلو من الشفقة عليهم حتى يرحموا في ظلال الحرية وتتفتح عواطفهم للجمال

في ميدان الجمال الذي كان مظهراً له مظاهر حياة السعدي

«المعارف التي تلقنها في صغره»

ولقد كان أول ما تعلمه في صغره يرجع إلى فروع الفقه وأحكام الصلاة والصوم والقرآن ورياضة النفس على السلوك والفضيلة

«فضل أمه عليه»

وإذا كان لأبيه ذلك الفضل الذي سلف ذكره فقد كان لأمه منه بمنزلة أيضاً فضل كبير في تربيته وإنمائه وهي التي حضنته بعد أبيه وسايرته في أيام حداثته حتى كمل.

ومن الأمور التي نستطيع أن نتفهم بها شيئاً من حياة سعدي ما ذكره في «البستان» مما يتعلق بثورة الغضب التي سلكته مرة فكادت تباعد بينه وبين الكمالات الأدبية والشمائل المنشودة

ذكر «أني غضبت مرة في حالة لهيش ونزق وصرخت في وجهها فبكت وقالت له هل نسيت ضعفك في الصغر حتى تطاولت علي في الكبر». فما كان أكبر نفس هذه الأم وما كان أجدره بأن يعتبر بهذا الدرس — وتدل هذه الحادثة وغيرها على أن

لم يباع السعدى فى ذلك العهد لم ينظر إليها ما يحول بينها وبينه التأهل لذلك المجد الأثيل الذى كان يتنظره غيابه . ومع ذلك فقد كانت نفسه إذ ذاك بسيطة تتخدع لأقل شىء .

ولعلك تذكر ذلك الخاتم الذهبى الذى أعطاه له والده مع الكتاب والقرطاس فلقد استطاع جهل أنه يؤثر عليه ويأخذه منه مقابل قطعة من الحلوى . ولكنه هذه الحادثة كانت فى عينه درسا أغلى من الخاتم وأنفس من الذهب فلقد بعثت فى نفسه ذكرى نافعة مفيدة يميز بها بين قيم الأشياء ومقاديرها .

ومما حدث به كذلك عن نفسه على سبيل الموعظة أن أباه استصحبه فى يوم عيد والناس فى زهو وسرور فأشار عليه أن يمسك بطرف ثوبه وأن يترسم طريقه لئلا يضل وهما يسيران فى وسط هذا الزحام وبينما هما كذلك رأى السعدى أطفالا مثله بلعبون فترك أباه ومال إليهم حتى إذا غاب عن نظره صرخ بأعلى صوته فعاد إليه وضربه فالسعدى يستفتح من هذا أن الصغير الجاهل يجب عليه أن لا يخرج عن مشورة الكبير العاقل .

والمعنى هذا يجعلنا نفهم أن الرجل كان في حداثة سنه قوي الذاكرة نامي الملاحظة دقيق الاعتبار وأن البساطة والسذاجة لا تضران صاحبهما متى استطاع أن يصل بدقة تفكيره إلى فهم الحقائق من خلال الحوادث فلقد كان يروي لنا هذه القصص وهو يستخلص لنا منها القواعد التي نهتدي بها في طريق الحياة العملية الصحيحة .

إن السعدي من صغره كان محبا للأدب مطيعا له صادعا بأمره ملازما إياه وهما يقطعان الليل بالسهر بينما الناس قد غلب عليهم سلطان النوم ومع ذلك فيجد أن ذهبت تلك الليلة الخشنة التي كان لها كل الفضل في تهذيبه واستكماله بقي أثرها الحميد في نفسه فأورثته مصدر الاعتماد على النفس وقوة التحليل والفهم فعرف كيف يدرك لذة التصوف ويفهم معنى جمال الحياة حتى صاغ لنا فيها تلك الأناشيد تتألق في ثوب هندسية الشريف وحتى سما إلى أفق الفضل فكان جديرا بأن يخطب وده جلالة الملك .

٢

العوامل التي كانت سبباً في تكوين السعدي (١٢)

العوامل المؤثرة في حياة السعدي في شيراز (١٣) ـ «العامل الأول» والد السعدي (١٣) ـ «العامل الثاني» كبار المتصوفين والأدباء (١٥) ـ «العامل الثالث» البيئة (١٩) ـ «العامل الرابع» الأخطرابات (٢٤) ـ «العامل الخامس» المدرسة النظامية [وهي من العوامل الخاصة ببغداد] (٢٥) ـ «العامل السادس» وهو الخاص بالأسفار (٣١)

العوامل التي كانت سببا في تكوينه

المدى

إن ثمرة جهود الناس في حياتهم العلمية والعملية إنما ترجع في نشأتها إلى كثير من العوامل هي بمثابة المقدمات لها فيجب علينا أن نتقصاها ونتبينها إذا أردنا أن نقف على قيمة ذلك لدى الناس. وهذا البحث مع ذلك يثير بصائرنا أمام الشؤون العامة ويمهد لنا سبيل الأسباب الصالحة لتشخيص نظر سليم ولذلك كانت دراسة الأدب في هذا العصر الأخير داعية إلى تفهم عناصر هذه العوامل نفسية كانت أو اجتماعية لتقدر أثرها منه حيث القبح أو الحسن ونرجو أن نكون موفقين في سلوك هذا الطريق الوعر لنخرج منه إلى مقدار هذا الرجل العظيم.

وإذا بحثنا في حياة المدى رأينا أن هناك كثيرا من العوامل كانت سببا في تكوينه وهذه العوامل تختلف باختلاف الوسط الذي عاش فيه ولهذا يجب أن نقسم هذه العوامل

التقسيم :

أولا :- العوامل التي تأثرت بها حياة الأولى وهو في شيراز .

ثانيا :- العوامل التي أعقبتها بعد أن غادرها إلى بغداد .

وهناك عوامل أخرى لا يصح أن نغفلها وهي مكانة أبيه التي كانت أول هذه العوامل ولذلك نخصه فيها قبل كل شيء ، ثم أسفاره التي تختتم بها تلك العوامل

العوامل المؤثرة في حياة السعدي في شيراز

(١)

(والد السعدي)

إن الكلام على حياة والد السعدي واجب لأنه من أكبر العوامل التي كان لها أول تأثير كبير في تكوينه سواء من حيث مبدأ الوراثة الذي أصبح مبدأ مقررا أو من حيث تعهده إياه في صغره . كان أبو السعدي من رجال الدين الشديدي التمسك به المترفيه في العبادة القانعيه في الحياة لعلهم بأن الرزق عرضة زائل حتى بلغ بهم الاستمساك بالدين

إلى التصوف والانضواء تحت علمه والاسترسال في الخلوات والأذكار. وقد رأينا أثر ذلك في نشأة السعدي وهو يقطع مع أبيه ليالي الطوال في التعبد والتهجد وتلاوة القرآن.

على أن والد السعدي كان مع طيبته شديدا معه كما ذكرنا حتى اعتاد الخضوع له والامتثال إلى إرشاداته وهكذا تكونت في نفسه أسمى الملكات النفسية وهي اعتماده على نفسه بعد موت أبيه. ومن آثار هذا الاعتماد أنه دفعه إلى الهجرة لبغداد فرارا مما كان يجري في شيراز من تشدد الحكام واستبدادهم واضطراب الأحكام وأيضا لاستكمال نفسه بما ينقصها من العلوم على أيدي المتفقهين ورجال الحكمة والفلسفة ببغداد.

ولا شك أن هذا العامل الأول كان القالب الذي صبت فيه عزيمة نفسه في صورة كاملة من صفات أبيه التي ظهر أثرها فيما بعد في مواعظه الخاصة بالتربية الأخلاقية وسنذكر شيئا من ذلك في موضعه.

﴿٢﴾

كبار المتصوفة والأدباء في شيراز

علمنا أن السعدي في عهد أبيه تذوق طعم الاتجاه إلى العلم والانصراف إلى استكمال النفس حتى أصبح ذلك غراما عنده مع صغره وما كان في ذلك العهد شيء من زخارف مدينة الملهد الحافل يصرفه عن هذه الغاية سيما وأبوه إلى جانبه مصباح يضيء الطريق أمام خطواته الأولى، فلما انطفأ ذلك المصباح شعر السعدي بفراغ في نفسه بعد ذهاب ذلك المرشد الشديد الرحيم فكان لابد له من البحث عن مصباح آخر فوجده عند من كانوا من أئمة الدين والأدب في ذلك العصر وهم «قطب الدين الشيرازي» و «فريد الدين العطار» و «جلال الدين الرومي» و «الفردوسي» وغيرهم.

وإذا كانت حياة السعدي بعد أبيه قد اكتنفت مشيئا من عرفانه أولئك الأئمة فقد وجب أن نذكر كلمة عن كل منهم.

ولنبدأ بقطب الدين الشيرازي لأنه كان على رواية الكثيرين خال السيد
ومعه فكانت الحقيقة لأبيه من بعده .

وقطب الدين هذا من كبار العلماء الفلسفة والحكمة وقد تخرج
على يده المحقق الطوسي الشهير . وهو صاحب كتاب « المنطقة »
شهير باسم القطبي نسبة إلى قطب الدين يكاد أن يكون الوحيد .
أما الذين تأثروا بهم السيد في حياته غير قطب الدين فهم فريد
الدين العطار . وكان طبيبا وصاحب حانوت يتجر فيه بالأعطار
وما كان متصوفا في الأصل وإنما دخل في التصوف لحادثة غريبة
شهيرة هنا على سبيل الفكاهة (١) . وهي أنه كان يوما بحانوته
وكان حانوتا منسقا مزينا فمر به درويش فقير فلما بهرته زينة
هذا الحانوت وهو مستغرقة النظر إليه طرده فريد الدين
وقد صاح به اذهب فقال لقد ذهبت وأما أنت فماذا يكون
مصيرك وعلى أثر ذلك خر ميتا فاضطرب فريد الدين وترك
الحانوت واعتزل الناس ومن ذلك اليوم اعتنق التصوف
وصار من أقطابه وله فيه مصنفات شتى نذكر منها كتاب

(١) راجع شعر العجم للعلامة شبلي النعماني الهندي .

«مصيبت نامه» يرثى فيه العالم وكتاب «الهى نامة» في الوحدانية ومثله كتاب جواهر الذات في الذات العلية وكتاب الشهير منطق الطير وله أيضا ديوان صوفي يقع في مائة ألف بيت وقد استند على كل هذه الكتب المستشرقه الانجليزى الشهير المستر براون الأستاذ بجامعة كمبردج.

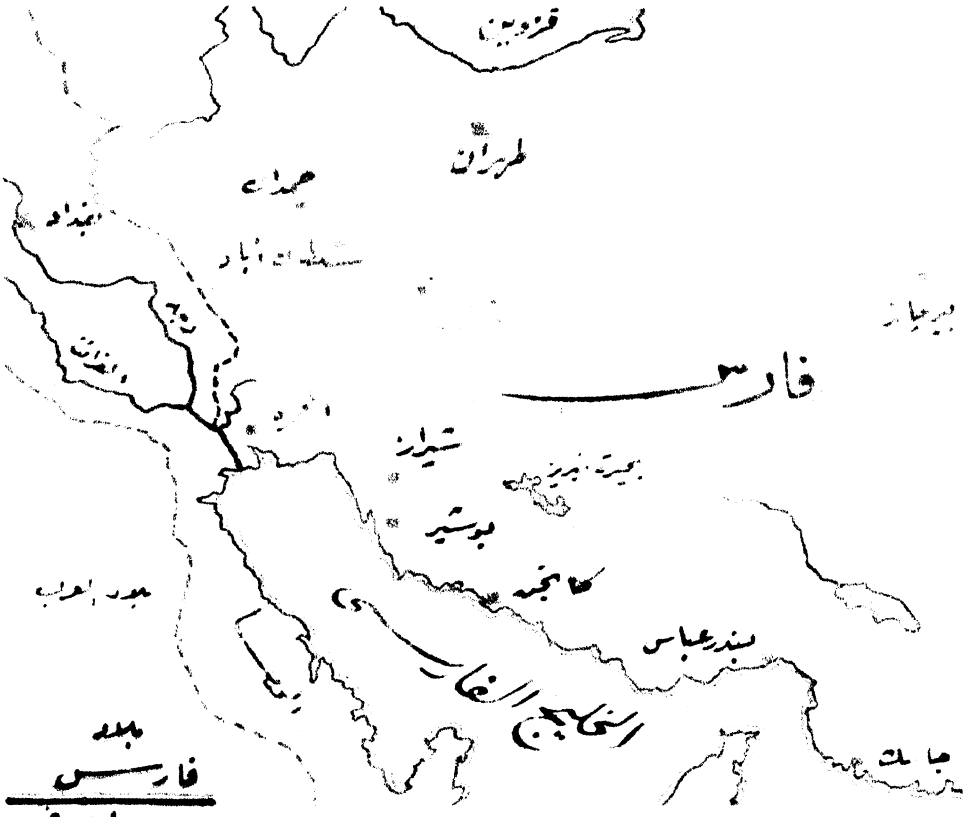
كذلك صدالدين تأثر برهم في حياته الأديب الفارسي الشهير كمال اسماعيل.

أما الذين تأثروا بآثارهم بعد وفاتهم فهم جلال الدين الرومي صاحب كتاب المثنوى وهو سد الكبير الصوفيه حتى أنه معاصريه كانوا يقدسون تعاليمه وينزلونه منزلة القرآن سد حيث الحكمة والارشاد، ولعل تلقيبه بالرومي لأنه ولد في آسيا الصغرى، وكلمة المثنوى المسمى بها كتابه معناها الأشعار التي لا تزاحم فيها القوافي وهي مجموعة القاصيص كان جلال الدين يستخلص من كل منها عبرة، ومن ذلك :- أنه أحد الرعاة كان يناجي الله في غير أدب

نزوجه سيدنا موسى عليه السلام ولكنه الوحى نزل عليه يقول له:
[illegible] لم أرسلك لتصرف القلوب عنى ولكنك باعتراضك على هذا الرجل
[illegible] سلبته بى ولتعلم أننى لم أهتم بمظهر العبادات ولكنى بصفاء
[illegible].

[illegible] من كبار شعراء الصوفية وهم أوحدى وأنورى
[illegible] وسنائى وغيرهما وأخيرا الشاعر المؤرخ
[illegible] شعراء الفرس حتى أن مولانا جامى الشاعر
[illegible] وألحقه بأنبياء الشعر [illegible].
[illegible] بأحد الشاعرين.

[illegible] أبو نصر وأثره فى لغات الأرض أجمع ولسنا
[illegible] صاحب الشاهنامه بقل فى شىء عن أعظم شعراء
الرمانه والمؤرخيه مثل هوميروس اليونانى وشاكسبير الإنجليزى
وغيرهم ولكنه مخطئ إذا قلنا أنه لم يقم فى العرب شاعر
ألف التواريخ المطولة شعرا مثل هذا البيرانى الشهير الذى
بلغ كتابه ستين ألف بيت من الشعر وقلما يوجد فيه كلمة
أجنبية.


قزوین
طهران
بغداد
سلطانیه
انبار
فارس
شیراز
بوشیر
کنگه
بندرعباس
الخلیج الفارسی
بلده
فارس
ا.ب.ع

ولقد كان من تأثير هذا العامل في نفس السعدي أنه فيما يبدو أصبح له القدح المعلى في الأدب والحكمة وكذلك في التصوف ولكل منها على أسلوب خاص يتعارض مع أسلوب أولئك المتصوفين وسيأتي تفصيل ذلك كله فيما بعد.

(٣)
البيئة

إن البذرة في الأرض لا تصلح إلا إذا صادفت وسطا ملائما لنموها فالأرض اليابسة تخنقها وهي في أول أمرها حياتها وإذا كانت غير عميقة تزاحم البذور فيها كما أن النبات عند أول هبوب الريح عرضة للزوال كما أنه يجب أن تحيط بالبذرة حرارة بنسبة خاصة لنموها.

كذلك للنفوس وسط تخصص بها.

ولا يكفي أن تكون الطبيعة أول غارس للدروس البشرية المفكرة الشعورة فلا بد للطبيعة أيضا من بيئة حضارية معنوية خاصة تكفل الحياة لتلك الدروس وأول

أجهضت لأنه النبوغ كالنبات يتنوع بتنوع تلك الحرارة حتى أنه الكتاب وغيرهم من الفنانين تختلف آثارهم باختلاف تلك البيئة المؤثرة فيهم.

ولذلك كان واجبا علينا أن نذكر طرفا من الوسط الذي طبع فيه العرب. وإنا كلما قرضنا شطرا من سيره في تعريجه وهذا يغير هيئة أيضا المرأة على ما يظهر كانت قليلة التأثر في نفسه بالنسبة لما فعلته فيه بيئته الأصلية التي خرج منها وهي شبه بادية على وجه خاص وبلاد الفرس على وجه عام ولقد ذكر هو نفسه ذلك في الجاحظية من أنه يفضل أبناء بلده على جميع الأشخاص الذين صادفهم أثناء رحلاته. ثم إنه تأثر بهؤلاء الأشخاص من مواطنيه ليقوم مقام تأثره بيئته على وجه مطلق ولكن هؤلاء الأشخاص أيضا إنما كانوا من سكان تلك البيئة التي كانوا نواة عشيرتها.

ولا غرو فإن بلاد فارس على وجه عام شهيرة بصاريها الشعرية وأنهارها الجارية العذبة وجبالها التي لا تنقطع منها الخضرة

حتى أدركه أحد الملوك الذين [illegible] فأحسن
وأقامت معه في أرض الجزيرة الذي [illegible]
شرب سمها فمات [illegible]
استأنس بالحيات فأخذ [illegible]
السنة السبعة التي [illegible]
الحضارة الأولى للعالم [illegible]

ولقد ظلت شجرة [illegible] تقوم
في بقعة كريمة التربة خصبة الجنبات كثيرة الأنهار عذبة المياه
وافرة الرياض والمشاجر. والثمار والظلال. ما قد [illegible]
من الزمان. وحقب [illegible] لا تنقطع طول السنة منابعه
مستفيضة ونفس مصاديقه فضة [illegible] سواد
شاطئ النهر [illegible] وشجر [illegible] متنزهات
العالم. قال أبو بكر الخوارزمي: متنزهات الدنيا أربعة: مرو في
غوطتها وشعب بوان في سفحها وسمرقند في
حتى أدركه أتاك أبا بكر سعد بن [illegible]

كامه يفاخر بهذا المنتزه فيقول « إنه ؛ ضاهى شعب بوانه لدى
نزهة ؛ حالتى الخوف والطمأنينة : فلصوت السواد ومنتزه شعب بوانه
ولقد أفاض نفس العرب ؛ وصف هذا المنتزه حتى قال فيه أبو الطيب المتنبى

منحنى الشعب كالمجرة ؛ المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمانه

* * *

سلوا شعب حنة لو سألتم ... سليمانه لسار بترجمانه

* * *

إذا غنى الحمام الورد فيه ... أجابته أغانى الضيانه
وصه بالشعب أحوج من حمام ... إذا غنى غناه إلى البيانه

* * *

يقول بشعب بوانه حصانى ... أسرحنا نسير إلى الطعانه

وقال فيه بعضهم

إذا أشرف المحزون منه على فضاء ... على شعب بوانه استراح من الكرب

ولعل أجمل هذا المناخ كامه السرفى إبان العطاء والصيف حيث كبار الكتاب والعلماء فى بلاد الفرس وعلو الشخص فى شيراز الغناء كامه يطلق عليه اسم "دار العلم". حتى

أطيب ما وصف الشاعر الفارسي الشهير حافظ الشيرازي بقوله
«دع يا ساقي اسقني فإنك لم تجد في الجنة ساحل ركن آباد ومسترد
المصلى». وحتى قال الشيخ علي حزين المؤرخ إنه هو شيراز بلائم
العقل والصحة كل الملائمة. وحتى أن السيد أيضا أفاض
كثيرا في وصف هذه العاصمة البديعة بل إنه يمتاز عن غيره بمحاولة
تناول وصفها بالإفاضة في جميع أدوارها لنا كما كانت في القرن
الثالث عشر تصورا لمعاد جميع ما في هذا القرن العابر إلى عصرنا
الحاضر إذا انتقل بنا قاطبة القرن إلى ذلك العهد القديم.
لكنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من وصف تلك المدينة وحياة
سكانها إلا أحصاها وسنرى مبلغ تأثير ذلك في نفسه لأنه
ما كان يذكر بحزينة سعد شيراز ذلك العهد السالف في شيراز
الحديث بمعنى يتناول كل شئون الأدب والحكمة والاجتماع
والأخلاق ولا عرف بلاد شيراز على وجه خاص وبلاد إيران
على وجه عام كانت أكبر العوامل لإحداث هذا التأثير فضلا
عما اكتسبه في رحلاته الطويلة التي سنتكلم عنها.

لما ولد السعد كان أمير شيراز هو أتابك مظفر الدين
تكلة ثالث من تولى أتابك بفارس ولكنه كانت في ذلك العهد ميدانا
للقلاقل والاضطرابات حتى أن أتابك كان يعاني كثيرا من
المتاعب من جراء هذه التقلبات وعلى الأخص من هجماته في الشمال
والغرب وهم سلاجقة خوارزم وكذلك من هجمات مايرة البرية
هي أن السلطان سعد أتابك الزنجي الذي تولى الحكم بعد ذلك
وإن كان ملكا عادلا حكيما إلا أنه تغلب عليه أحيانا الأثرة
والتوسع وأحدث منه الغارة على البلدان الأخرى ولكنه ما كان
يغادرها حتى كانت تقع في يد التتار الذين لم يراع التاريخ عهدا كعهدهم
في الوحشية والأذى والاستخفاف بالأرواح والتلذذ بسفك الدماء
حتى دب الرعب في القلوب واندفع الناس إلى الهجرة والتشريد من البلاد
التي تقع من شيراز وهي غير مأمونة تتوسط كما يوسم الجبال عصابات
من اللصوص وقطاع الطرق يحتشدون في انتظار المارة وهكذا كان شاعر

المستقبل يتوفى عشرة هذه الاضطرابات التي لا تنقطع ،
والتي كانت شيراز مسرحا لها وقد أشار البيرطي الجغرافي ياقوت
الحموي في كتابه معجم البلدان الذي تم سنة ١٢٢٤ م .

ومن غير شك أن هذه الصورة الضعيفة تركت في نفسه جرحا
داميا إلى أن برع في نبوغه فكانت من أكبر المؤثرات على خياله
وقلمه ويؤيد ذلك ما وضع البستان والجلستان وهما على
الأغلب مرآة تنعكس فيها تلك الصور التي روعته في مسقط
رأسه فكانت سببا يدفع به إلى مناهضة الملوك والسلاطين ،
وانتقادهم وإرشادهم مما سيأتي تفصيله في أثر مجهوده
الأدبي .

حوالي سنة ٥٨٤ كانت جامعات شيراز مرحلة ما وكانت دورها
مقفلة على أثر تلك الاضطرابات السياسية التي أسلفنا ذكرها

أما في بغداد عاصمة ملك السلجوقية فكانت العلم فيها إذ ذاك في
ذلك العصر وكانت دورها العلمية يؤمها الناس من كافة
الأقطار وعلى الخصوص الجامعة النظامية.

ولهذا السبب فكر السعدي في الهجرة إليها ليغترف من بحر
علومها الدينية والدنيوية على يد مشاهير معلميها في
ذلك الزمان.

ولما كانت هذه النظامية من أكبر العوامل في إنشاء
قصة السعدي فقد وجب أن نذكر شيئاً على سبيل
الإيجاز من تاريخ تأسيسها.

يرجع الفضل في وضع أساس هذه الجامعة الكبيرة
التي كانت أم جامعات العالم في العهد الماضي إلى أبي علي
الحسن بن علي بن إسحاق الشهير بنظام الملك قوام الدين
الطوسي وهو شيعي وكان في أول عهده قوياً على كثير من العلم
والمسائل الدينية والدنيوية وقد سمع به علي بن شاذان
المعتمد عليه حاكم بلخ من أعمال الفرس وبما كان عليه من العلم

والده كان فكان كل سنة يطلبه إليه ليستفيد منه مواهبه في تصريف
شئون مملكته فجعل نظام الملك وزير ابنه داود به ميكائيل السلجوقي
والد السلطان ألب ارسلان فعرف له قدره وأحسن إكرامه
ووصى به ولده حتى إذا أشار السلطان ألب ارسلان توطيد
الملك لولده ملك شاه لم يجد غير نظام الملك ليكون
وزيرا له .

كان يصرف كل جهوده من أكبر حكام بني سلاجقة لأنه
كان يصرف كل جهوده في تحقيق كل وجوه الإصلاح وعلى
الأخص التعليم حتى أنه كان إذا سمع بنبوغ أي فرد من أفراد
الدولة في أي ناحية منها بنى له مدرسة ودار كتب وأجرى عليه
وعلى أهله ما يكفل لهم الحياة والاستمرار والبقاء وحده يرجع الفضل في
تأسيس الجامعة النظامية السالف ذكرها وقد بدأ في وضع
أساسها حتى رواية أبي الحسن محمد بن هلال الصابي في
ذي الحجة سنة ٤٥٧ حيث تم إنشاؤها بعد سنتين أي في
سنة ٤٥٩ واحتفل بالتدريس فيها في يوم السبت عاشر ذي القعدة

من تلك السنة وكانت مقامة على مقربة من الرصافة على شاطئ نهر دجلة في الجانب الشرقي من دار السلام (بغداد).

وكان من بين العلماء الذين عهد إليهم أمر التعليم فيها أبو القاسم الدبوسي و أبو القاسم الشيري وأبي محمد و أبي إسحاق وكلاهما من شيراز ثم الأستاذ الشيخ شمس الدين أبي الفرج الشهير بابن الجوزي وضياء الدين السهروردي وأبي منصور الوزان وأبي عبد الله الطبري صاحب التاريخ المشهور وحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي الغني عن الذكر وصاحب كتاب إحياء العلوم وغيرهم حيث كانوا يدرسون الفقه والتوحيد والتفسير والتصوف وهذا غير ما كان يترجم من لسان الإفرنجية.

ولقد ذكر السمعاني في البوستان اثنين من معلميه وهما ابن الجوزي والسهروردي الذي حل محله من بعده ضياء الدين ذكريا أحد تلاميذه، وهكذا ظل السنين الطويلة حتى كان في هذه الجامعة على الدرس يتلقاه من هذين

لأستاذين متأثرا بما كان لهما من المكانة في التصوف ،
وبتعاليم الإمام الغزالي الذي امتد ظله على ربوع
تلك الكلية العظيمة وكان أساتذته على جانب عظيم
غير العلم بسعة العقل والصدر فلست نعالبهم
فرار النفس من شاعر المستقبل حتى نال كيا وعبه
بالجامعة بعيدا وحتى كتب له أن يكون أحد أولئك الأنبياء
الثلاثة سأظهر أثره في البوستان والجلستانه
وغيرهما سواء في التعليم أو الحكمة أو المديه
أو الشعر .

والذي يجدر بنا إلفات النظر إليه
أن السعدي لم يخرج على أثر انتهائه من تلك
الجامعة صورة مطابقة لأولئك المعلمين بل إنه
كما ذكرنا فعلت فيه كل العوامل التي أسلفناها
فعلا فخلقت منه رجلا جديدا واسع العقل
وقيه النظر مستقلا في فكره حتى أنه لما يجار

اولئك الصالحين في أسلوبهم وغايتهم بل أنه كان له رأي
خاص لا يتفق مع آرائهم ، ومن ذلك مثلا رأيه في
التصوف الذي أجرى مقارنة على صورة جديدة تقربه من
أفهام الناس المولعين ببلوغ الكمال على اختلاف طبقاتهم
من إياه على أسلوب [illegible] عن الدنيا ويدعو مع ذلك
إلى استكمال الأخلاق .

وفي الحقيقة فإن الغزالي كان يرى أن الغرض من
التصوف هو انتزاع النفس من سلطان الشهوة وتجريدها
من ميولها الدنيئة حتى يصبح القلب حرا بالذكر الله ،
ولكنه هذا التصوف [illegible] هذه الصورة
بغير إطلاق على أي دين بغير تحديد .

وكذلك فإن المتصوفين لا يقفون في فهم التصوف
عند حد القرآن والحديث بل يرجعون فيه إلى العقل المتأثر
بالتجلي وعلى كل حال فإنهم يرون أن أول مراتب التصوف هو
أن يخلو الإنسان [illegible] .

ولكنه يبدو كان بعيدا كل البعد عن هذا الاتجاه

ولكنه الصحيح كان بعيدا كل البعد عن مثل هذا الاتجاه
وقد علمنا من آثار عقله ونزعته رأيه في التصوف الذي كان دستورا
بين أهل هذه الطريقة وبين الدين حتى أنه كان لا يسلم بالحالة
النفسية التي كانت تطرأ على جلال الدين الرومي.

ونستدل أيضا من آثار استقلال الفكر والتصرف
عند الصحيح أنه كان مخصوصا في شتى المواضيع حتى أنه فيما كان
يكتبه من الوعظ السياسي يعد من أكبر دواعي ذلك الزعماء
وقد أشرنا بالإشارة إلى ذلك هنالك لكي نقدم منه صورة
صحيحة على ما كان لهذا الرجل العامل من الأثر السياسي في
إنشاء نفسيته كما ذكرنا.

يعجبني ما قرأته مرة للكاتبة الشهيرة جورج [illegible]
ما قدمته لبصيرة أيترها تلك الكلمة التي ذكرتها [illegible]
للذكاء. قالت ما معناه: إن الإنسان في الحق

سجينة أربع جدران « وطوبته » يقضي كل سني حياته فيه على حالة واحدة لا أعرف كيف أنها لا تسوقه إلى الملل والسآمة . يمشي في غرفته ثم يقف عند نافذته وبعد ذلك يتناول طعام الصباح ويخرج حتى إذا عاد وقت الظهيرة تناول طعام غدائه ثم استراح وبعدئذ يخرج ويعود حتى إذا أقبل الليل نام إلى الصباح فإذا استيقظ غسل وجهه ثم وقف عند المرآة ثم أطل من النافذة ثم عاد إلى مثل حركات اليوم السالف وهكذا.

وفي الواقع إن الإنسان ليمل مثل هذه الحياة الواقفة حتى أنه ليكره أن يرى وجهه في المرآة وحتى أنه ليتألم من وفاء كلبه له لأنه كل هذه الحركات متكررة مطردة لا يتخللها جديد فلماذا لا يخرج الإنسان من سجن هذه الحياة الجامدة إلى الحرية المطلقة من طريق الانتحار.

وفي الواقع أن الإنسان يكتئب بالانتحار من

الفوائد ما لا يمكنه أن يدخل تحت حصر لأنه فضلا عن الفوائد من آحاد تلك الحالة الجامدة التي ذكرناها تقع عيناه كل يوم على بلدان مختلفة وأجناس متغايرة وعادات وآثار فالعالم في الحقيقة جامعة فسيحة الأطراف البعيد منه تلقى علم الحياة عليك بالتنقل فيها، ولذلك نجد أن أكابر الرؤوس التي كتب لها الخلود كانت دائما مقرونة بالأسفار لأن العلم المتنقل مع الإنسان في كل أزمانه حياته.

ولا شك أن من يسلك هذا السبيل يجد نفسه دائما غريبا عند كل بلد جديد فيدفعه هذا إلى كل وسيلة من وسائل الاتصال بغيره من الناس والإلمام بشيء من لغاتهم والوقوف على أسرار حياتهم وعاداتهم حتى يتقد عما يجرح عواطفهم لينال حسن القرب منهم وهو فوق ذلك تتجلى لنفسه كل يوم زهرة جديدة من أزاهير هذا العالم الواسع وتنكشف له من أحوال الناس العبر

[illegible] وهكذا تهيأ عقله للرحلة وجعله [illegible] للكمال .

فالغرابة هيئة إذا فطرت نفس السعيد على التنقل والرحيلة إلى شتى البلدان والغرابة إذا المسافر رحالة قديرا على تكشف نقائص النفوس على وصف ما تحتاج إليه من الإرشاد والنصح مما تظاهر به خلال ما سطره .

وأكبر دليل على سلامة هذا الرأى الصعوبات التى يلاقيها المسافرون وعلى الأخص السعيد فما كانت وسائل النقل في عهده ميسورة وهو يجوب أقاصى البلدان تفضلها كان عليه من الفقر الدم الصبر وقوة العزيمة والرغبة فى استكمال نفسه من هذا الطريق الباقى . فلقد زار خراسان وتركستان والتتار وبلخ وكاشغر والصين العليا وآذربيجان وتبريز والبصرة والكوفة والواسط وطرابلس الشرق وديار بكر والبلدان الواقعة فى أقصى الروم وبلاد المغرب وافريقية حتى بلاد الحبشة التى ذكر وصفها والإسكندرية ومصر والهند وكذلك ركب البحار ومنها الخليج الفارسى وبحر عمان

وأوفيانوس الهند وبحر العرب والقلزم والروم حتى قال
السيد جور أوسلى أنه لا يوجد بعد ابنه بطرطة فى ولده
بالسياحات غير السيد ، وحتى أنه كريم خانه زند أعلا
على مقربة منه شيراز مقبرة معروفة بمقبرة هفتن أى ذات
السبع قبور نصب على بابها تمثالا نصفيا للسيد مسكا
وناء وعلى كتفه سيف وهما إشارة لكثير الأسفار وقد
صور هذا التمثال المستر كلارك كار الرحالة الإنجليزى
الذى ترجم السيادة وألحق هذه الصورة بتلك الترجمة .

وكم قاسى فى خدمة السيد التعب والحرمان والجوع ومع
ذلك فقد كان عزيز النفس حتى أنه لما كان فى بعض أسفاره
بالإسكندرية وقد نشبت فيها مجاعة دعاه أحد الوجهاء
المتمولين إلى وليمة فى نفر من الفقراء المدراويين فامتنع
قائلا أنه السيد لا يفعل ذلك ولو مات جوعا .

وكثيرا ما كانت تضيق به الحال حتى كان يضطر إلى
القناعة كما فعل فى بيت المقدس ودمشق كما جاء فى كتابه

نفسات الأنس . وربما كانت أشأم الساعات عليه بالكوفة تلك الساعة التي فقد عندها كل شيء حتى عذائه صار فيع خياله إلى هذه الحكمة البالغة : لم يبتلني الله أن يرزقني شيئاً فلما دخلت المسجد وجدت عند بابه رجلاً يبيع السابيه فحمدت الله على الحالة التي أنا فيها وذهبت أذكر ذلك في البيتاده .

وصا صادفه من أهوال السفر في رحلته أنه غادر دمشق إلى صوائي فلسطين في القرن السابع الهجري وكانت حرب الصليب القائمة قائمة أمره المسيحيون واستقدموه مع جمع غفير يقدرون بعشرة آلاف حول طرابلس الشرق وحينما هذا الرجل العظيم على هذه الحالة الأليمة مرّ به أحد معارفه من وجهاء حلب فتوسط لفك أسره عند أولئك القوم مقابل عشرة دنانير وعاد به حيث زوجه بابنته بمهر قدره مائة دينار وكانت هذه الحادثة سبباً أيضاً في تلك المجاورة الأليفة بينه وبين زوجته

وقد سئم شرط السوء فلقطا . أخذت تميره
بأنه أباها اشتراه بعشرة دنانير فقال نعم وباعني
لك بمائة .

وحاسبكر عند أبيها أنه لما قصد إلى البيت العمالية
[illegible] وكان يجلس
بيت الصنم يوما يقسم فأخذ بتقسيمه ذلك اليوم
على عبادة الكواكب وعرفه ما ذكرها الجنيد أمره
بكسرها ذلك اليوم حتى أحاطوا به وسألوه في ذلك فخبرهم
بما فعله وقال إني ضربت رجلا ذلك فلما تأخر عنه الرجوع
إلى الحقيقة إذا أنكسروا بحصة من هذه فذهبوا وساقوا
به إلى الهيكل وأخذوا يجتمعون الحول ويتعجبون في المرايا
حتى إذا أقبل الناس وانتهوا إلى المعبد حاجبه ذلك
الصنم انتهى السدى نفسه الصنم أخذ يرفع ساعده
رويدا رويدا إلى السماء فظاهر البكاء وأنه أصبح من
المؤمنين بعبادتهم ولكنه في الحقيقة كان معتقدا أنه في

الشعر شيئا فطلب أن يخلو بنفسه في الهيكل للتعبد
وبعث أخته يدور حول جوانب الهيكل فعثر على بوق
فحمله فاهدة هذا الصنم الكبير وبيده هبل وهو الذي
كان يحلف به هذا الساعد وكان على مقربة منه سر
فأراده فيما رأى فأهال عليه بجمعه كل ما الصفور ثم قر
على أن يجتاحه بالبكاء وتقبيله الصنم ما كان إلا
تحسبا كما ذكرنا وهو يقول مثل ما ذكره الشاعر البوصيري
والصدق إذ أقال تحت العتب

لا تحسبني فاعتصم بالكذب
ولقد كان من جراء هذه الأسفار الطويلة فوق
ما اكتسبه نفسه من الرياضة وأخلاقه من الكمال و
عقله من الوقاع أنه ألم بكثير من لغات الأقطار
المختلفة حتى أن ديوانه المطبوع في كلكتا عادة الصفحة
٤٦٣ منه قصيدة موضوعها تقلبات الحرية . درسها
المستشرق باشر ونوفره إلى بيانه الوحيدة بها بيانها

فوجد انه عشرينا ، لدولى بلغة فارسية . أما باقى
أبيات القصيدة فبلغاتٍ مختلفة لا تقل عن سبعة عشر لغة ،
منها التركية الشرقية والمغولية والعربية والكردية ولغة
أهل فرس وكازيرون وآسيا الصغرى وكاشان وكرمانه ،
وأصفهانه وقزوينه وخراسانه والهند وشيراز والزنجى . وليس
يجب عليه الإلمام إلى حد معلوم بهذه اللغات المختلفة ،
حتى أنه دائرة معارف شخص قد سمعت فى ذلك حيث ذكرت أنه
كان ملما أيضا بكثير من اللغات الأوربية . ولقد كانت أولى
رحلاته فى سنة (٦١٢) أى بعد أن قضى فى الجامعة النظامية
ببغداد ثمانى سنين وقد انتهت هذه الأسفار بعودته إلى شيراز
حيث كان الأمر استتب فيها بفضل أميرها أبى بكر فتلاشى فى ظله
ابن سعد الزنجى وحكمته وعدله ولما دخلها كان قد سبقه
صيته إليها . فاستقبله أهلها بالكرامة التى تجب
لأفذاذ الرجال .

٣

عودة السعدي إلى وطنه

١٤٠

خصوم السعدي ١٥٤ — مذهب السعدي ١٥٥ — شيخوخته

(٧٧)

وفاته

(٦١)

«عودة السعدي لوطنه»

بعد تلك الغيبة الطويلة عاد السعدي إلى شيراز مسقط رأسه. وهذا الذي ينسى وطنه سيما بعد أن نالت عنه المعارف واستتب فيه الأمن وصلحت أحوال الناس وبعد ما ذاع من عدل أمير شيراز أبي بكر سعد زنجي وتردد على الألسنة ما كان عليه من الإصلاح والرحمة والعدل. وكان هذه الشوق وهاجه الحنين فعاد من الشام إليه على طريق العراق العجمي متجولا في أصفهان.

ولقد كان عمره وقتئذ حوالي ٧٢ سنة وهو شيخ كثيف اللحية قليل الجسم نحيله. وربما كان من الصواب أن نرصد هنا ما ذكره هو نفسه عن هذه العودة قال «١- أتعرف هذا الخراب الذي كان يسمى بالأمس الطويل في سوالف الغراب؟ - إنني فررت من غوائل الدهر الذي لا يثبت وجهه البلاد مختلفة متجددة تجد شعور أهل الحبشة (١) - ٣- حقا أنهم جميعا كانوا من سلالة آدم وحواء ولكنهم كانوا في التوحش والافتراس لا يقلون ظلما وهم في هذا عن أظافر الذئاب والسباع - ٤- ترى الناس في أكناف

---

(١) ربما كان هذا التشبيه لا يأتلف مع الذوق العربي ولكنه أنيق ومقبول في اللغة الفارسية ولا أرى إلا التجاوز هذا الاضطراب الذي يدركه

مرافقهم إخوانه الملائكة في طهارتهم وشمائلهم وبعيداً عن غرائز الطين
سوء. فلما أسعدتني الدوبة إلى الوطء وجدته هانئاً مطمئناً مهيأ لقطع الساع
عن مناجح ومشيط - ٦ - وكنت عندما شاهدت سابقاً كانت مصائب ستر الله
وحبال الأنس مقطوعة ومعالم الراحة والسكون مطموسة - ٧ - أما الآن فقد
تحول الشارط فوراً وهمط سروراً في ظل الملك العادل أبي بكر ابن سعد زنجي.

ولقد أسلفنا فيما سبق أن شهرة السعدي كانت
سبقته إلى شيراز وعطرت جوها وملأت نفوس أهلها
فكان مقتضى ذلك أن يكون له بعد عودته إلى شيراز المقام
الذي يتناسب مع علمه ومع تلك الشهرة الواسعة ولكن
مع ذلك انزوى عن عيون الناس وعاش عيشة الدراويش
الفقراء.

ولقد كان أبو بكر مع ما ذكرناه عنه من مواهبه الصفات غير
ميال إلى العلماء يمقتهم ويحط لهم بسبب التوفر على الدنيا
حتى أنه فض منهم نفراً كثيراً تذكر منهم بينهم الإمام عبد الله
محرر الواعظ، والإمام شهاب الدين، ومولانا فخر الدين

براهيم كما أنه صدر بعضهم في أمواله كالقاضي عز الدين
لوى صه أعيانه السنده وقاضي القضاة وقتئذ وكذا أنه
عجبه الأديب الكبير سعيد عميد الدين أحمد وزراء الأمير
سعد الزنجي صه إحدى القلاع حتى قضى بها.

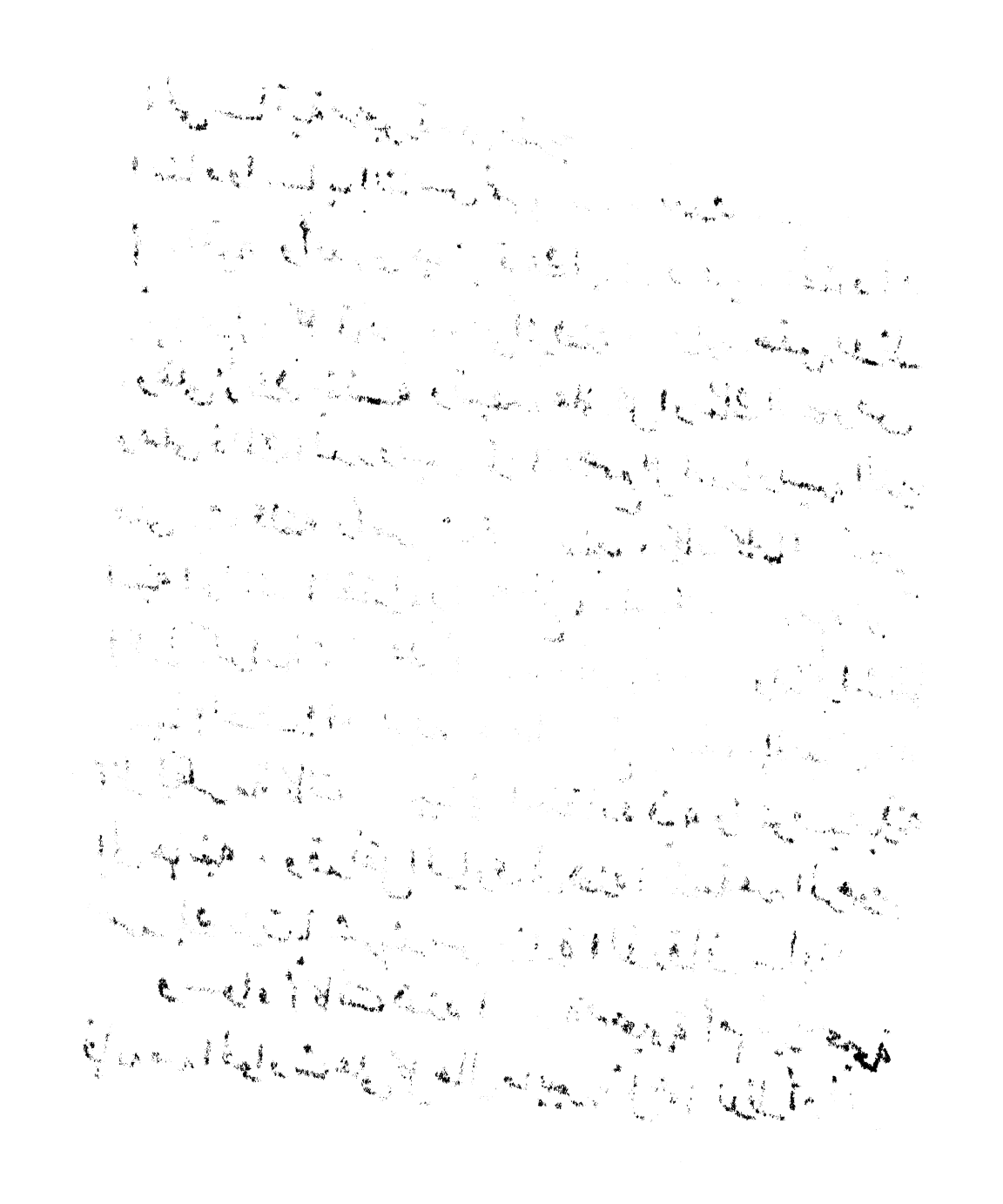
وعلى عكس ذلك كان الأمير أبو بكر يقرب منه البراويسه
يعطف على الفقراء والمساكين ويجري عليهم الأرزاق
كثيرة وهو كثير الاعتقاد فيهم إلى حد لا يوصف. حتى أن
في الجملة مرة ظهر في ثوب أولئك البراويسه وتقدم
إليه فبالغ في إكرامه والاعتقاد به حتى إذا هانت صلاة
الغرب قدمه للإمامة فأنشأ في تلاوته وركعته مع ذلك
من اعتقاده فيه.

هذا الملك الغريب الذي سلكه ذلك الأمير فقد
العلماء وذوي الفضل ودفعهم إلى الانكماش وعدم
الظهور. ولسنا في معرض البحث عنه الحامل للأمير على
اصطناء أهل الفضل والعلم إلى الحد الذي ذكرناه.

والسلام في كل مكان مصابيح الهداية والإرشاد
والإصلاح . ولا يبعد أن أحد العلماء في عصره ظهر بمظهر
خداع كرهه في هذه الطبقة كلها كما فعل لنظ أوغلي المصوب
تمثاله بأول شارع خيرت بمصر في حالة قريبة من هذه بناء
على ما سمعته من أحد أفاضل إخواني المصريين وتقرير
الخبر أنني رأيت بالطرف الغربي من شارع الشيخ يوسف
(الذي به بناء البرلمان) قبتين فوق قبرين على امتداد
الطريق الموصل لمستشفى القصر العيني وقد سألته عنهما
فقال أحد أحد المقبرتين لنفس لنظ أوغلي الذي سلف
ذكره والثانية لآخر اسمه الشيخ يوسف وقد سمي
الشارع السالف باسمه ولدفنه إلى جانب لنظ أوغلي
قصة غريبة : وهي أنه ممن كان (محافظا) للقاهرة
وكان هو عابدا من فضاء بلغه من أحد الناس أن بذلك

الحي ساقية مهجورة على مقربة من جدار متهدم وأمر اللصوص
اعتادوا سلب الناس ثم إلقاءهم بعد قتلهم في تلك
الساقية وأمر إلى جانب ذلك الجدار درويشا اعتاد أن
ينبههم إلى كل قادم . وعلى أثر هذه الشكوى حقق لفظ
أوغلي ذلك بنفسه وقبض على كل أولئك اللصوص
وعلى ذلك الدرويش كما أنه جمع كل الدراويش الذين
على شاكلته وأمر بشنقهم جميعا . وكان كلما استصرخ
إليه أولئك الفقراء (المشايخ) على هذه المظالم
إظهار كرامة تدل على أنهم من أولياء الله وهكذا استقر
جميعا إلى هذا المدفون معهما الشيخ يوسف . إذ يقال أنه
أظهر الكرامة كانت سببا في اعتقاده فيه والتوصية بدفنه
إلى جانبه . وقد نقل الراوي لي هذه القصة عن المرحوم
محمد بك عزت باشمهندس وزارة الأوقاف سابقا .

وسواء أكانت هذه القصة صحيحة أم غير صحيحة
فإن من الحوادث على كل حال ما يبرر مثل هذا اللفظ أوغلي



الأمير أبي بكر على ما تقدم.

وهنا يصح أن نتساءل هل لملك هذا الأمير صلة بالكمالية السعدية كثيرة والالتجاء بالدراويش الذين كانوا محل عناية الأمير وإكرامه؟

وهل السعدي من عشاق المظاهر يؤثرون التقرب من الملوك على أية صورة من الصور فلما رأى أن ظهوره بما يتفق مع مقامه العلمي يحرم عليه بعض الأمير محمد إلى الظهور في ثوب أولئك الفقراء حتى لا يحرم من تلك العناية وذلك الإكرام؟ لا نظن ذلك لأنه أقل ما في الأخذ بهذا الرأي هو اتهام السعدي بحب نفسه إلى حد يؤثره على نفع الناس من جهة وبالجبن عن الظهور في ثوبه الحقيقي خوفا من غضب الأمير من جهة أخرى.

وربما رأى السعدي أن ظهوره بهذا المظهر يجعل بعض الأمير إياه فيحول دونه وغرضه من الإرشاد وإرشاد الناس ولذلك تدرج معه حتى يصل إلى تلك الغاية المحمودة

من هذا الطريق.

ولكنه الذي نزجيه أن السعدي لم يكن فيما أظهر متصنعا ولا متكلفا لأنه رجل عرفنا به مأثوراته أنه كان أكثر الناس بعدا عن الزهد حتى أنه كان يفضل الرجل العاصي الذي يخشى الله على التقي الذي يباهي بزهده. ولعل هذا الشعور كان ثمرة تلك العظة الأولى التي وعظه أبوه بها حين زجره لما رآه يفاخر النائمين بيقظته وهو يقطع الليل بتلاوة كتاب الله. نعم إنه كان يقول: إنه كل شخص مولود لعصره أما السعدي فقد ولد لتأديبه. ولكنه الجهر بمثل هذا الفخر كان مألوفا في أسلوب كتاب الأعاجم بغير استثناء. حتى أن السعدي ما كان يغفله في نفس حالات تواضعه لله «يا سعدي بعد أن عزوت العالم بسيف بيانك فاحمد الله على ذلك فتلك نعمة من نعم السماء عليك».

ومع ذلك فكما يدل ظاهر ذلك على الزهو فهو يدل أيضا

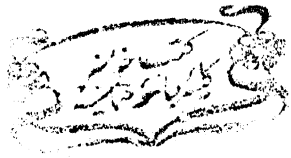
على الجهر بفضل الله ونعمته «وأما بنعمة ربك فحدث»
وإذنه فاتجاه السعدي نحو العيسه إلى جانب الفقراء
من الدراويش ما كان مظهرا مقصودا وإنما الذي نفس
السعدي كانت نفسا قانعة زاهدة تميل إلى زينة الحياة
الفارغة وزخرفها الباطل وعادة الخصي البسكندي
التي مرت بنا خير دليل على ذلك.

ومع ذلك فإن السعدي كان كثير النصح للأمير
في ظروف كثيرة جريئا عليه في كثير من المواضع وكهذه المرأة
وهو درويش فقير بما كانت أشد من جرأته وهو عالم
له من علمه جاه وقوة يستند عليهما.

وزد على ذلك أن أشد ما يتعرض له النفوس هو
الحرية في الرأي والصراحة في القول سيما مع من كان كذلك
الكبير في حقده على هذه الطائفة المضطهدة ومع ذلك
فإن السعدي ما خانته شجاعته يوما على ما كان فيه من
ضعف ومجاهة فلم ينل أن تغرقه سفينة سلامته في

هذا البحر الخضم المرتطم أمواجه المظلمة العاتية. وقد غرقت فيه قبل سفنه أخرى وهو الذي اشتهر عنه زهده في الحياة واحتقاره إياها وتعريته لواجب النصح والإرشاد والاستماتة فيه.

ومع ذلك فقد وقع من قلب الأمير موقعا لم يبلغه غيره حتى زاد احترامه له واعتقاده فيه ولعل السر في ذلك أسلوبه الرشيق الذي كان يسحر به النفوس وأنه كان إذا كان ضمنه رأيا من الآراء عرف كيف يجد لنفسه طريقة الخروج منه نزيها والعلماء تصدى لهذا الطريق الوعر إصالة، وإنما استبقاء للغرض حتى يصل الى غرضه من طريق آخر وفي فرصة أخرى. وهكذا كان يقضي عليك الأقاصيص عن الملوك الذين بادوا واندرسوا مع ضافريا بالملوك الحاضرين. والجلسات والبوستات يفيضان بذلك فمثلا في الجلسات: أن أحد الدراويش اتخذ من إحدى الغابات مسكنا ومن أوراقها أشجارها قوتا،



فزاره مرة أحد الملوك حيث عاد به إلى المدينة وأنزله في
قصر منيع ووفر له أسباب الهناء والنعيم وشهى المآكل
وفاخر الثياب وخصص بخدمته حسانه الجواري لخدمته فما
أسرع ما تغير خلقه وفسدت نفسه. وقد ظن الملك
أنه هذه هي خير السبل في إظهار الحب لمثل هذا الرجل
ولكن وزيره العاقل الحكيم اعترضه عليه قائلا أنه
من هذا الإكرام والالتطاف العلماء حتى يتفرغوا إلى
التصنيف والتدريس هادئة مطمئنة وليس الزهاد
الذين يحول هذا الترف بينهم وبين عبادة الله.

وهناك قصة أخرى أكثر انطباقا على حالة أبي
لهب وهي: أنه ملكا من الملوك واجه مشكلة جسيمة
خطيرة فقدر أنه لو خرج فائزا منها لوهب الزهاد
مالا كثيرا فلما كانه ما أراد أعطى لخادمه صرة من النقود
ليوزعها على الزهاد بما وعد وإيفاء بما نذر. وكان
الخادم ذكيا عاقلا فعاد له في الغد ومعه تلك الصرة

قائلا: إنني لم أعثر على زاهد واحد مع شدة بحثي فاعتذر عليه الملك ورماه بالرشايه والرشد وهو يعلم أنه هناك مالا يقل عن ثمانمائة زاهد فأجابه الخادم بأدب أنه الذين ذاقوا طعم الزهد الصحيح لن يقبلوه شيئاً من هذا المال أمامه يقبلونه فليسوا منهم فلما سمع الملك ذلك لم يتمالك نفسه عن الضحك وهو يقول: «بقدر ما أحب هؤلاء الزهاد يبغضهم هذا الشيطان ولكنه لم يتجاوز حدود الصدق فيما قال».

وأمثال هذه الحكايات كثير، ومن ذلك في الجلسة قصة أخرى ربما كانت أوضح في أسلوب السعدي الجدلي وقد أجاد في تصوير مساوئ السلاطين ورياء الدراويش فأقام من نفسه مدافعا عن الملوك يحاور أحد الفقراء مدافعا عن الدراويش وهكذا أخذ خصمه يؤيدهم ويذم الملوك والقضاة في حين أن السعدي يشدد النكير عليهم وعليهم ويأخذ بناصر الملوك وهو في كلتا الحالتين واسع الحجة. قوي

البرهانه سواء عده نفسه أو على نفسه وهي مناظرة قوية
إلا أنه أراد بط إظهار ما وقع هذه الطرفين واصلاحهما.
ولقد وقد جور الملوك في نفسه اتجاها خالصا لصالح
البشر عامة حتى أنه حينه قصد إلى تبريز بعد الحج واجتمع
هنالك بعلمائها وفضلائها أراد أن يزور خواجه شمس
الدين محمد صاحب الديوان وأخاه الصغير علاء الدين
محمد وزراء أباقاخان ابن هلاكو خان وكان هذان
الوزيران من المحبين والمعتقدين فيه وبينما هو في طريقه
صادف موكب أباقاخان وهو بين وزيريه فأراد أن ينتحي
الطريق جانبا ويعود ولكنه الأخوان عرفاه فنزلا في
الحال عن فرسيهما وأقبلا عليه يقدمان له تحية الإجلال
والإكرام بتقبيل يديه وقدميه فلما شاهد الملك ذلك
قال لحاشيته لم يحترمنا شمس الدين وأخوه يوما احترامها
لهذا الشيخ العابر السبيل فمن تراه يكون؟ ولكن لما
علم من وزيريه أنه الصوفي الذي طارت شهرته في الآفاق

طلبت نفسه بتعرف به فاستصحباه يوما إليه حتى إذا استأذنه للانصراف سأله الملك بعض النصائح فقال له: اعلم أيها الملك أنه ليس يصحبك إلى العالم الثانى إلا الحسنات أو السيئات فلك أن تتخذ منهما الرفيق الذى تريد وقد تظلم ذلك له فى الحال كطلبه فى هذه القطعة المشهورة «إن الملك الذى يسهر على رعيته حلال له ما يأخذه منها أما الذى ينام عنها فإنه ما يحصل منها بنصيب فى عيد الله». وعند ذلك سأله أباقا خانه فى أى مكانه منها تضمنى فأجابه «إن كنت من المساهرين عليها فمكانك البيت الأول وإلا فإنك فى البيت الثانى.

وما كانت جرأة السعدى هذه فى الحق إلا لترفعه فى عين الملك حتى بالغ فى إكرامه وهو نفسه يقول فى الجلستان «لم يكن أحد جريئا على نصح الملوك إلا إذا كان لا يخاف على عنقه ولا يطمع فى المال».

ولقد صادف مرة وهو بجامع دمشق أحد ملوك

العرب الظالمة فقال له حينما استنصحه بما يظفر به على عدوه.

«كن رحيما بشعبك الضعيف تصبح قويا على عدوك العنيف»

وهكذا نرى أن السعدي ما كان جريئا على الأمير أبي بكر فحسب بل على كل من يصادفهم من الملوك مما يدل على ذلك الاتجاه العام في النصح حسبما ذكرنا.

ومع ذلك فقد كان السعدي أيضا يفيد مما آتاه الله من العلم والحكمة كل من يقصدونه حيث كان لا يبخل عليهم برأيه كتابة أو شفاها. ومن ذلك أنه على بن احمد أحد فضلاء شيراز قصده يوما وسأله أيهما المرشد للسالكين العقل أم الدين. ولما كان هذا السؤال هاما اضطر السعدي أن يرد عليه في رسالة خاصة طويلة مما يدل على اهتمام ذلك العصر بالمباحث الدقيقة، وعلى مكانة السعدي منه حتى كانوا يقصدونه كعبة العلم والحكمة يحجونه إليها.

وقد كان السعدي يجمع إلى أسلوبه الساحر الذي وضعناه ، خفة روح منه موقعة بظريف المزاح وقد ذكرنا فيما مضى ما كان من أمره مع زوجته ابنة ذلك الحلبي ونزيد على ذلك أيضا من طريف الفكاهة أنه دخل مرة حماما بتبريز فاجتمع فيه مع الشاعر همام التبريزي [illegible] تلاميذ المحقق الطوسي وما كان رأى السعدي [illegible] قبل فسألوه عن اسمه وبلده فلما أجابه السعدي أنه من شيراز قال إنه من الدهشة أنه أهل شيراز كثر عددهم في تبريز حتى أصبحوا أكثر من الكلاب فأجابه السعدي ولكنه التبريزي بيده في شيراز أقل من الكلاب .

خصوم السعدي

تتبع هذا إقبال الناس على السعدي وهو أمير البيان وظريف اللسان ، ومع ذلك فما كان يخلو من خصوم . وقد كان لناصر الدين الطوسي وهو رياضي كبير وكان يأنس هولاكو وسنشاهد تلميذه

فى مركز سام ببلاط شيراز وهما عزيز الدين أوماني ،
وهمام الدين التبريزى سالف الذكر فهذا التلميذ له
كانا من أشد خصومه وعلى الأخص الأخير منهما حتى
أنه كان يقول « الهى أنزل رحمتك على الطيبة من عبادك
وحل بينهم وبينه الأشرار أينما حلوا وعلى الأخص فى
شيراز » وأيضا « إن الجدار من أكبر النقائص فى عين
الحقود وكذلك السعدى إذا كان وردة فإنه شوكة فى
عيون خصومه » .

« مذهب السعدى »

ويظهر أن السعدى كان سنيا يحترم الكتاب والسنة
ويحترمهما كما يحترمهما كل المسلمين عليه
ومع ذلك فإنه كان غير متعصب وكثيرا تسامح يقول « إن
المسلم وغير المسلم لهما أجرهما عند الله » أما المجوس
فإنه كان لا يتصورهم ويباحثهم الناس وبينهم لأنه
ليس لهم دين مكتوب كان يأخذ على المسيحيين قولهم بالتثليث

لأمه ذلك فى عينه شرك بالله كما ورد ذكر ذلك فى البستانه.

وربما قام هذا التسامح على تأصل فى نفسه من جذور الرحمة والشفقة مع الناس عامة حتى أنه كان يقول: «ليس لى من أمل فى هذه الحياة إلا أنه أعمل على إسعاد البشر».

ومع ذلك فإننا نراه فى صاحبنا شديد الوطأة على المسيحيه ولكنه هذا لا يحولنا عن الأخذ بما صرح هو به من ذلك التسامح والبعد عن التعصب الذميم أولا: لأنه يعد فى مقامه وفى موقف كهذا أبعد الناس عن مناقضة نفسه بنفسه. ثانيا: أنه ربما كان الحامل له على ذم المسيحيه بعد تسامحه السالف ما كان من أمرهم فى القرون الثالث عشر مما أثار الحروب الصليبية بين الشرق والغرب وجعل ذلك القرن عصيبا لنا. وقد علمنا ما عاناه هذا الرجل العظيم فى النشأة الذى وقفوه إلى العمل فيه مع أحقر الناس

استبداد وعتو على ما سلف ذكره حينما تكلمنا عنه
بعجالة .

— «شيخونة» —

ولما بلغ السعد سعد الشيخونة وكان كثير الأطراف
والتفكير انصرف عنه الناس إلى العبادة في المدرسة
المسماة بالخانقاه وقضى شطر حياته الأخير فيها حتى
قاضت روحه ودفن بها . وكان سبب إنشاء هذه الخانقاه
أنه عاد إليه الجواني كان أرسل إليه بضعة آلاف
دينار اعتذر عن قبوله ، فلما ألح عليه صرفها في هذا
السبيل . وقد كان قبره كعبة يحج إليها الناس من جميع
الأصقاع تيمنا بهذا الرجل العظيم حتى أنه بعضهم كان
يوصي بأن يدفن إلى جانبه ومنهم الشاعر الشهير
«حافظ الشيرازي» الذي دفن على مقربة منها بعد
قريب من الزمان .

ولقد زاره الرحالة الشهير ابن بطوطة وكتب عنه

غيره منهم الرحالة الإنجليزي الشهير وليم فرنكلين الذي
سافر في بلاد الفرس سنة ١٧٨٦ والسير جور أوسلي وقد
نقل الأخير عنه رحلة وليم فرنكلين نرصده هنا لأهميته
منه حيث وصف [illegible] المقبرة ومقام السعدي المذكور فقال
[illegible] مقبرة السعدي على جبل في مغرب ولكنها شرقا
بسفح الجبل وهو بناء مربع الشكل والقبر منه الحجر ماحوله
ستة أقدام في قدمين ونصف مغطى بغطاء أسود مزركش
مكتوب عليه شعر للسعدي نفسه كما أنه حيطان المقبرة
مخلوطة فوقها بالنسخ ما يتعلق بحياته ومصنفاته وكثير من
العلماء الذين يقصدونه هذا القبر منه مسلف الصفاع
يترونه فوق الورد والأزهار وفي زكرة من هذه المقبرة
نسخة من كليلة بخط جميل أعدت لمطالعة الزائرين
وحوائط المدفنة مزدوة بالأبيات الفارسية من بداولتك
الزوار ولكن بناءها آخذ في التهدم يوما بعد يوم وليس
أحد يهتم بإصلاحه . وبجوار القبر عشرات القبور

للرجال سه أهل التقوى الذين اوصوا بنقل عظامهم اليها.

وبهذا نقل ما سلف يقول السير جون ملكم

« إنني في أوائل ١٨١١ عندما عينت سفيرا سه قبل جلالة الملك جورج الثالث لدى فتح علي شاه قاجار. وكنت حاملا أوراق تعييني فمكثت بضعة أشهر في شيراز في طريقي الى طهران وهكذا اخذت أتردد على قبر السعدي مما أكسبني رواية المستر وليم فرنكلين عنه حيث الواقع أن هذا القبر أصبح المآذن بالياً على وشك الانهيار والحديقة وأشجارها التي كانت حول تلك المقبرة في الأزمان السالفة أصبحت الآن لا أثر لها فخطر لي أنه أتولى أنا إصلاحه على نفقتي لإعجابي بمقدرة السعدي ومكانته ولكنه حال بيني وبينه ذلك الولد الخامس لشاه إيران الذي كان حاكما على شيراز وقتئذ بحجة أنه سيتولى إصلاحه بنفسه كما أصلح كريم خان زند مقبرة خواجه حافظ الشيرازي ولكنه لسوء الحظ

لم يفعل ولذلك يملؤني الألم والأسى كلما فكرت أنه سوف لا يبقى هناك أي أثر لهذا القبر يهتدي به الناس إلى مرقد ذلك الصبي الذي يحق لإيرلندا أن تفاخر به. وقد قال في دولة الشعر والفقه مكانة لا يطمع في مثلها أحد». انتهى كلامه.

وربما يعجب المتأمل مما جرى للعاديات والآثار في الشرق وكيف أنها لم تقو على صروف الدهر في حين أن الغرب على همجية أبنائه في القرون الوسطى لم يبرح محتفظا بجميع آثاره. وهذه بولونيا فإنه فيها أقدم كلية بأوربا قائمة على أمتن الدعائم ولا علة لذلك فيما أحسب إلا أنه معظم حكام الشرق جهلة لا يريدون أن يشاهدوا آثار أسلافهم ويشق عليهم إلا أن يتأثروا وذلك لما بين الصلة البعيد فكلما ولى أحدهم لا يأتي منه العمل أكثر من طمس اسم سلفه ليحل محله اسمه ولو قدر الملوك السالفون أن يهدموا الأهرام وغيرها من الآثار الباقية على الأدهار

لما قصر ساعة وعلى العكس في الغرب فإنه المتأخر يصلي
ما بدأ به المتقدم وهكذا حتى يستقيم الحال فسبحانه من كتب
على الشرق أن يفني بآثاره ورجاله وعلى الغرب أن يحيا بهما.

إذن ليس عجيبا أن يهتم السيهوراوي لأمر هذا
القبر ويتألم لما أصابه مع ما بينه وبينه السعدي من البعد
من شتى الوجوه لكنه هذا العجب يزول متى أدركنا أن
العلم والأدب لا وطن لهما وأنهما متاع شائع بين
الناس على مختلف أجناسهم. ولكنه مما يؤلم حقيقة
أن يتصدى السيهوراوي إلى إصلاح هذا القبر
تخليدا لذكرى السعدي وكان أمير شيراز أولى منه
بذلك. أما وفاة السعدي فقد كانت في عهد أغوه
هلاكو بن أباقاخان بن هلاكو خان (عندما استتب الأمر
للتتار في شيراز وفارس) سنة ٦٩١ أو سنة ١٢٩٢ م
من الهجرة وعمره تسعون سنة كما قدمنا.

٤

شهرة السعدي حياً وميتاً (٦٤)

حياته (٦٥) — أسباب شهرته (٦٦) — ذيوع صيته في مختلف الأصقاع (٦٧) — آراء الكتاب والشعراء فيه (٦٨) تساعد من دواعي شهرته (٦٨) — شهرته بعد موته (٧٠) — اهتمام أوروبا بالسعدي (٧٠) — أسباب شهرته في أوروبا (٧٠) — رأي كتاب أوروبا وفلاسفتها في السعدي (٧٠) — الموازنة بين السعدي وبين هوراس — آثاره والشرق والغرب (٧٢)

شهرة بلزاك وصفاته

(١)

قليل من الذين كتب لهم في الزمن القديم أن يكونوا من عظماء الرجال من لذت الشهرة حياتهم وذاقوا طعمها قبل موتهم. بل أن كثيرا منهم من لم يعرف قدره إلا بعد وفاته بزمن طويل وقد يكون ذلك لأن العصر الذي كانوا فيه كان عصر جهل لا يزن قيمة المتبرزين فيه من الناس أو عصرا ما عرف إلا الحقد عليهم فيغمط لهم في حياتهم وبعد مماتهم كما كانت الحال مع بلزاك الكاتب الفرنسي الشهير الذي لم يعرف مقداره إلا بعد موته بنصف قرن فصفق له من مات حيث أدرك أبناء الجيل الذي أعقبه أنه أجدر الناس بالعظمة وأولاهم بالخلود فبثوا شهرته من مرقدها وأطلقوا عليه اسم «أب المآسي البشرية» Père de la Comédie humaine

ولكنه السعيد يعد في مقدمة من نالوا تلك النعمة الجزيلة في حياتهم حتى طار صيته فملأ أجواء إيرلنده وتركستانه والهند والعرب وغيرها من الأصقاع. ولهذا شاء الإذلال

شهرة بعض عظماء الرجال

(١)

قليل من الذين كتب لهم في الزمن القديم أن يكونوا من عظماء الرجال من لذت الشهرة حياتهم وذاقوا طعمها قبل موتهم. بل أن كثيرا منهم من لم يعرف قدره إلا بعد وفاته بزمن طويل وقد يكون ذلك لأن العصر الذي كانوا فيه كان عصر جهل لا يزن قيمة المتبرزين فيه من الناس أو عصرا مملوءا بالحقد عليهم يغمط لهم فضلهم وينساه كما كانت الحال مع بلزاك الكاتب الفرنسي الشهير الذي لم يعرف مقداره إلا بعد نحو نصف قرن من موته حيث أدرك أبناء الجيل الذي أعقبه أنه أعبر الناس بالنظرة وأولاهم بالخلود فبثوا شهرته من مرقدها وأطلقوا عليه اسم «أب المآسي البشرية» Père de la Comédie humaine

ولكن السعدي يعد في مقدمة من نالوا تلك النعمة الجزيلة في حياتهم حتى طار صيته فملأ أقطار إيران وتركستان والهند والعرب وغيرها من الأصقاع. ولقد أشار إلى ذلك

فى مقدمة جلستانه وذكر كيف أنه اسم كان يتردد على أفواه كل الطبقات فى كثير من البلدان وإذا دلت آثاره على أنه كان يهيم بإشارة الناس بفضله والتغنى بذكره فإما أنه يكون مرجع ذلك إلى أنه بشر كالناس يهزه الطرب كما يهز المديح الملوك وإما أنه يكون لأنه كما قدمنا اعتاد أن يتحدث بنعمة الله عليه .

نعم إن السعدى كتبت له المقادير حياة الخلود فى نفس حياته الفانية ولا غرو فإن تكوينه واستعداده وما حصله من أسس العلم والأخلاق عن أبيه وأساتذته فى النظامية وما اكتسبه فى رحلاته من مخالطة الناس ودراسة أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم وما قاساه من مذاهب العيش كل ذلك جعل من هذا الرجل العادى رجلا خاصا من رجال العلم النادر والإرشاد الصحيح والحكمة العالية . جعل منه رجلا بعيد النظر سريع الملاحظة دقيق الحكم منقد الخاطر . وفى آثاره كثير من الشواهد الدالة

على ذلك . وقد ذكرنا مزاحة جواب على امرأته حين عيرته
بأن أباها اشتراه وكذلك نذكر هنا ما كان لمع الغلام
الذي وقفه على قبر :

كان غلام الغلام يدرس مقدمة الزمخشري فمر به
السعدي فرد مثال : ضرب زيد عمرا ؛ فقال له على البديهة
وهو يجيبه أن هذا [illegible] الصلح بن حفظ وخوارزم فما
بال زيد وعمرو لنا [illegible] ويقضايا به ".

ولقد ذكر في [illegible] كيف أن شهرة السعدي سبقته
إلى بلاد [illegible] قبل أن يصل إليها

[illegible] الفقيه المعروف بالبابة
الظريفة التي [illegible] أقبل فوجد الناس [illegible] وسوره
به وهم [illegible] فقيل له [illegible] شهير
السلطان [illegible] إلى [illegible] البابة
عن [illegible] فقال [illegible] فمر به [illegible]
حكمته [illegible]

وإذا أردت أن تقف على قيمة السعدي في أثره فاقرأ ما ذكره عنه كثير من الكتاب والشعراء

فلقد ذكر دولتشاه :

« لقد رفع لواء الشعر ثلاثة من الأنبياء ولواء الحديث جاء « أنه لا نبي بعدي » وهؤلاء الثلاث هم نبي المثنى الفردوسي ونبي القصائد الأنوري ونبي الغزل السعدي »

وعبد الرحمن الجامي يفضل السعدي على الأمير خسرو الدهلوي من حيث الإقبال العام على كلامه ومن حيث ذيوع صيته بين شعوبه وهو الذي يقول في هذا الصدد :

« ولقد طلب الأمير خسرو من السعدي أن يرشفه لماه فامتنع لأن هذه النعمة اختص بها السعدي وحده . »

على أن الأمير خسرو نفسه يشهد في مثنويته لفضل للسعدي وهمام التبريزي وتفوقهما في كمال الأسلوب الغزلي . وإذا كان قد أشار من طريق خفي إلى تحيز نفسه

عليها فى باقى أنواع الكلام الأخرى وهو ترجيح لا يصدر عن رجل كبير أجدر بالتواضع وأبعد عنه الحكم على نفسه وترك الحكم عليها لغيره - فإنه مع ذلك يباهى فى بعض شعره ويمدح أسلوبه مدحا مطلقا بغير تقييد ومن ذلك قوله فيه:

"دلائله تماثيل خرس نكرا فقد ملأ كأسه من معنى تلك الراح التى نعت براح شيراز"

وكذلك الأمير خسرو الدهلوى الذى كان يسميه معاصروه سعدى الهند فإنه أيضا كان يفتخر باتباع خطوات السعدى وهو الذى يقول:

"ولم يجن من هذا الورد إلا من حديقة السعدى وكل المولعين بأطايب المعانى يقطفون ورودها من هذه الحديقة"

ولقد طلب أربعة من أجل الفضلاء هم خواجه شمس الدين أمير معينه بروانه حاكم الروم وملك افتخار الدين الكرمانى وملك نور الدين الصدر إلى خواجه مؤيد الدين همو

الذى كان معاصرا للسعدى أن يحكم بينه وبين إمامى الهروى فأجابهم إلى ذلك بهذه الرباعية :

« إذا كانت فصاحتنا كالتغريد من البلبل فانه »
« منطوق السعدى كالعسل من النحل ولكنى لسه ألمع »
« أو السعدى مرتبة الإمامى فى الشعر »

وهو فى هذه الرباعية يسلم بتفوق السعدى عليه ولكنه لا يصل به إلى درجة الإمامى .

ولكن الحاج لطف عليخان قال فى معرض الرد على ذلك ما معناه : « لقد اختلف بعض الأدباء من الشعراء إلى مجد الدين همگر الذى لا ثانى له فى انحطاط الطبع ليحكم بين السعدى والإمامى فأنشأ لهم رباعية حيث وقعت عينى عليها حمدت الله على أنه لم يرد أحد من رجالات عصرنا فى تفوق السعدى على الإمامى حتى نصحح المفاضلة بينهما » ولقد زاد على ذلك « بأن مجد الدين لم يتخط الحقيقة فى التسليم بتفوق السعدى عليه أما

الأمامي ... أن قوله ... السعدي ... الأزاريطا
... قوله ... السيد ... وعدمه

ومع ذلك فلو أن السيد الحسيب الصبور كان تأخر
عند تقديم الشاعر قرنا أو نصف قرن لما اجتزأ على إضافة
بيتها مع الوجه الذي ذكره فرباعية ... أياما
السعدي بعد موته ... في كل قطعة الأرقطا
زعمه أن الأمامي قد ذهب لشأنه فيجيء أن يذكره أحد
... شهرته بعض مصنفات الكتب المخزونة في الطابق
وكتبه بقصبة السيد ... الخصية للسعدي لما بلغه ... دعا
به إلى الخروج عن ذلك الاجتماع الذي لقصد طلبة
رأس السعدي حيا وميتا

وربما كان من عوامل شهرة السعدي ما قطنه عليه
نفسه من الشاعر كما أشرنا إلى ذلك بإيجاز عند الكلام
على عودته إلى تيارت وكنا نقصد هنا أن نقول عنه

السيد جور اوسلى كما استخلصه من كتاب مجالس العشاق
فقد قال ما معناه : إن الحكيم نزارى القهستانى من أكبر شعراء
خراسان وحكمائها والمتشيعين للمذهب الإسماعيلى تقابل
يوما مع السعدى بأحد حمامات شيراز وبما علم السعدى به
سأله إذا كان من ديوان السعدى معروف بين أبناء وطنه
فقال نعم وإن أهل خراسان صغيرهم وكبيرهم يتفنون بذكره
وإنه هو نفسه يحفظ له بعض شعر أنشيلوه أمامه فوقر
من ذلك وقورا كبيرا وكشف عن نفسه فأكبره هذا
الإسماعيلى واستضافه .

وهذه القصة كغيرها لا تنبه لشاهرة السعدى
في الأقطار بل إنها تدلنا أيضا على طول قامته
وبعد صيته عند زعيم التعصب مع أن الإسماعيلية كانوا وقتئذ
يصدرون عن الملحدين اللادينيين ولم تكن فرقة من الفرق
أبغض منها إلى المسلمين . ونخرج مما ذكر إلى أن السعدى
كان من حسن حظه أن طبق شهرته بيده في حياته

أما بعد موته فقد طبقت شهرته الآفاق حتى أن الناس كانوا يحجون إلى قبره كما كانوا يحجون إلى قبر كاتبه بطولته والسير جورج سلى وغيرهما ويروى عنه أنه يدفنوا على مقربة منه وحتى أن شهرته انتقلت إلى أوربا فعرف قدره كتابها ومفكروها وأخذوا ينقلون كتبه إلى لغاتهم فمنى بترجمة جلستانه بفرنسا العلامة أندريه دوربيرة ١٦٤٤م. وبألمانيا الحجة اوشنباخ وبأمستردام المستشرق الشهير جينيتوس وقد ترجمه بترجمة أخرى باللغة اللاتينية. وقد ألحقنا فى آخر هذه المقالة جدولا مفصلا لمؤلفات السعدى التى عنى الغرب بطبعها وترجمتها أو شرحها ...

وربما كان أساس شهرته فى تلك الأقطار اتفاقه أسلوبه الكتابى والخيالى مع أساليب كتابها تلك الأساليب الغزيرة الموجزة حتى أن رينانه الفيلسوف الفرنسى الشهير وصاحب «حياة اليسوع» لم يفته ما فى أسلوب السعدى من تآخذ العقل الرجيح مع التصور السامى والفلسفة

الدقيقة مع سلامة الذوق والسمو بالأخلاق على طريقة عملية واضحة فقال عنه: «إنه السعدي في الحقيقة رجل منا» بل زاد على ذلك أيضا: «أنه ليس منا فحسب بل أنه مواهبه النادرة جديرة بأن يكون للعلم والأدب نصيب كبير منه ميراث قلم صاحبه»

على أن باربييه دي مينارد الكاتب الشهير ذكر عنه أيضا:

«إنه كثيرا ما تأثرت السعدي يذكرنا بدقة هوراس وهو فيه رشيق كاوفيد ومتحمس شاعر كرابليه وبسيط سهل كلافونتين»

وربما اقتضى هذا المقام أن نوازن بينه وبين أحد هؤلاء وليكن هوراس فإنه نقاربهما ليس فقط في بعض ما جاء على لسانهما بل أيضا في وجهة نظر كل منهما وكلاهما يرمي إلى ضرورة إسداء النصائح للناس على أسلوب عملي ومن ذلك قول هوراس عنه الحكيم أنه ملك

الملوك وقول السعدى عنه أنه ملك النفوس والسعدى هنا أعم من هوراس كما هو ظاهر.

وكيف لا يهتم اولئك المهرة فى تحليل النفوس وآثارها بالسعدى وقد كان أساس حكمته أنه يحزن النفوس بلا شىء وأنه يخضع لحوادث الزمان بغير شكوى وأنه يواجهها بدون خوف وأنه يقنع بالقليل ويزهد فى زخارف الحياة الباطلة. هذا هو الذى كان دعامة شهرة السعدى فى كافة الأقطار وعلى الأخص فى بلاد اوربا.

	اسم المؤلف	شرحه ترجمة طبعة اسم سنة شرحه او ترجمته او طبعه	اسم المترجم	المدينة التي طبع بها الكتاب	تاريخ سنة
١	الرسالة الثمانية	M. Good Men		Basila	١٨٨٨
٢	بوستان	N. H. Iqaff.		Vienna	١٨٠
٣	متن بوستان	A. Rodgers		London	١٨١١
٤	بوستان	N. H. Graff		Vienna	١٨٥٠
٥	"	Schlecha Wrschul		Wien	١٨٥٤
٦	"	Rueckert		Leipzig	١٨٨٤
٧	"	Barbier de Meynard			١٨٨٠
٨	"	F. Wilhofmachock		London	١٨٠٩
٩	"	G. S. Davis		"	١٨١٤
١٠	منتخبات بوستان	Robinson			١٨٨٨ MAR
١١	متن جلستان	Ghulistan		Calcutta	١٨٠٦
١٢	" "	E. B. Eastwick		Hertford	١٨٥٠

	اسم المؤلف	شرحه	ترجمه	المطبعة الذى شرح أو ترجم أو طبع	اللغة الترجمة	المدينة التى طبع فيها الكتاب	تاريخ ذلك
(١٤)	متن جلستان	—		Johnson جونسن		Hertford هرتفورد	١٦٧٤
(١٥)	~ ~			J. Platts		London	١٨٧٤
(١٥)	جلستان		—	A. Du Ryer			١٦٤٢
(١٦)	~		—	Dalegre			١٧٠٢
(١٧)	~		—	Gaumdin			١٧١٩
(١٨)	//		—	Semelet		Paris	١٨٥١
(١٩)	//		—	Gentius			١٦٥١ و ١٦٥٥
(٦٠)	//		—	Adam. Olearius		Schlessuing	١٦٥٤
(٦١)	//		—	B. Dorn		Humburgh	١٨٤٤
(٦٢)	//		—	Wolff		Stutgart	١٨٢١
(٦٣)	//		—	K. H. Graff		Liepzig	١٨٢٦
(٦٤)	//		—	Gladwin		كلكتا	١٨٠٨ و ١٨٠٨

	اسم المؤلف	شرحه	ترجمه	طبعه	اسم من شرحه أو ترجمه أو طبعه	لغة الترجمه	المدينة التى طبع فيها الكتاب	تاريخ ذلك
٢٥	جلستانه				Dumoulin دومولين	الانجليزية		١٨٠٦
٢٦	//				James Ross جيمس روس	//	London لندن	١٨٢٥ و ١٨٩٠
٢٧	//				E.B. Eastwick ا.ب. ايستويك	//	Hertford و London	١٨٥٢ و ١٨٨٠
٢٨	//				J.T. Platts ج.ت. بلتس	//	London لندن	١٨٧٤
٢٩	//				B. Kuzariang ب. قزاريانق	الروسية	Moscu موسكو	١٨٥٧
٣٠	//				Gtwinawski جوزنسكى	Polish	وارسا	١٨٧٩
٣١	//					التركيه	Constantinople قسطنطينية	١٨٨٦ و ١٨٩٤
٣٢	قصيدة سر الحيات				K.H. Graff ك.ه. جراف	الالمانيه		
٣٣	// // البرائح				// // // // // //	// //		
٣٤	// // القوائم				// // // // // //	// //		
٣٥	قصيدة فارسيه				// // // // // //	// //		
٣٦	بعض الروائى				// // // // // //	// //		
٣٧	بعض الرباعيات				// // // // // //	// //		
٣٨	الغزوان				Lateweche لاتويش		Strasburg استرسبورج	١٨٧٩
٣٩	الصاحبيه				Bacher باخر			

١) مع شرح بسيط ٢) وشرحها ٣) وشرحها ٤) وشرحها ٥) وشرحها

B.K.

اسم المؤلف	شرح	ترجمة	طبعة	اسم مترجم أو ترجمة أوطبعة	لغة الترجمة	المدينة التي طبع فيها الكتاب	تاريخ وفاته
هلستان		—	—	الخواجه ابراهيل جبرائيل يوسف (١)	العربيه	مطبعة بولاق القاهره Cairo	١٢٦٤
٤١ ،،		—	—	يرشير على أفوس	الهندستانيه	كلكتا	١٨٥٣ م

١) الشهير بالمخلع

راجع فهرس المخطوطات الفارسيه «بديوان الهند» تأليف الدكتور

Dr. Eth. ايث

آثار السعدي

الرسائل المنثورة (٧٩) ـ البندنامه «كوهنا» (٧٩) ـ القصائد الفارسية (٨٠) ـ الملمعات (٨١) ـ المثلثات (٨٢) ـ الترجيعات (٨٣) القصائد العربية (٨٤) ـ الطيبات (٨٥) ـ البدائع (٨٦) ـ خواتيم (٨٧) ـ القصائد الخزيدية القديمة (٨٨) ـ الصاحبية أو الصاحبناميه (٨٩) ـ الجلستان (٩٠) ـ البستان (٩١)

آثار السعد

يحصر منثور السعد ومنظومه فيما يأتي :-

١ - [illegible] في النثر

٢ - البديعية - أي رسالة الارشاد المعروف بكبرى

٣ - القصائد الفارسية [illegible] على اللمعات والنفحات والبهجات

٤ - القصائد العربية

٥ - الديوان الكامل في الغزل ويسمى الرياض

٦ - الديوان الثاني ويسمى البدائع

٧ - الديوان الثالث ويسمى الخرائد

٨ - [illegible] القديم

٩ - [illegible]

١٠ - الغانيات والغزليات

١١ - الجلسات

١٢ - المستانة

وأول من عنى بجمع هذه المؤلفات في مجلدين عظيمين هو بالإجماع علي بن أحمد أبي بكر البيزوتي بعد نحو نصف قرن من وفاة السمدي حيث ربط على حروف الهجاء بالنسبة للقوافي

وكانت هذه الطريقة متبعة من قديم حتى أنه من تناولوا في سنة ١٧٩١ تلك المؤلفات بالنشر بكلكتا ومنهم المستر هانجستون ومولوي محمد رشيد اضطروا إلى اتباع هذا النمط، وهي طريقة وإن سهلت الاهتداء إلى القصائد بتتبع قوافيها إلا أنها عقيمة بالنسبة لبيان الأوقات التي وضعت فيها ما دامت هذه الأوقات غير معينة حتى تكون هادية للظروف التي أحاطت بالشاعر فأوحت إلى خياله ما كان ينصبه به قلمه وخاطره.

وهناك عيب آخر من حيث عدم الدقة في النقل لتنقل تلك المؤلفات بين أيدي النساخ الذين لا يفهمون من الأمور غير الخط فلا يدركون معنى ما ينسخون حتى يردوه إلى أصله أو يتتبعونه فيهتدوا إلى الأصل الصحيح

وهذه المخطوطات - سواء المتداولة بين أيدي الناس أو المخطوط منها في دور الكتب منها ما هو أعجمي تركي ومنها ما هو أعجمي هندي وهو الذي كان أساس طبعة كالكتا أم الطبعات الأهلية التي ظهرت بعد ذلك.

ولقد وضع الجامع السالف الذكر وهو علي بن أحمد أبي بكر مقدمة لما جمعه عقبها بالرسائل المنثورة التي كان يسميها السعدي بالسفينة لأنه البدء فيها على أبيه وعلى الأخص المتصوف يجب أن تكون له سفينة يعبر بها بحر الحياة ليصل إلى بر السلامة.

وهذه الرسائل تخوض في التصوف والبدعة التشكك في الحياة وفي ذكر الله ورسوله مع شيء من القرآن والحديث ومع قصة أبي يزيد البسطامي المذكورة في ملحمة لفريد الدين العطار أما البندنامة «كريما»، وهي رسالة الإرشاد فإنه بعض الأدباء لم يرقهم نسبتها إلى السعدي لأنها لا توجد في النسخ القديمة من الكليات.

ولكننا مع ذلك لا نرى من بأس في انتسابها إليه

عدم العثور عليه في النسخ القديمة من الكليات لا يقوم دليلا على أنها ليست للسعدي إذ من الجائز أن يكون أحد قد عثر عليها بعد أن رتب هذه الكلمات علي بن أحمد وضمها إلى البقية ولا سيما إذا لاحظنا أنها لا تختلف في الأسلوب الجميل الذي امتاز به السعدي .

نعم إننا لا نستطيع أن نقيم دليلا مقنعا على اتصال هذا الأثر بالسعدي وكل الأدلة التي سوقناها غير منتجة على ما ذكرناه وهذا فضلا عن أنه لم يذكر أحد اسمها من المتأخرين نسب إليه هذا الأثر . وعلى كل حال فإن هذه الرسالة قائمة على الوعظ والإرشاد حتى أطلق عليها هذا الاسم .

أما قصائده الفارسية فأغلبها أخلاقي لا تخلو من المدح والرثاء .

وليس في وسعنا أن نقرب هذا الشعر من أدوار حياته . ولكننا نراه في قصائده ابتداء من رقم ١٠ إلى رقم

٣٨ ينوح على ما أضاع من شبابه مما يرجح أنه نظمها في آخر حياته أو على أثر عودته لشيراز وهي تلك العودة التي اشتهر عندها بقصيدته الحادية عشر التي تغنى فيها بمحاسن وطنه وفراره من الحوادث العصيبة التي أصابته.

أما مديحه فقد كان لبعض الخواص نذكر منهم أباكاخان وأخوي هولاكو والحاكم سلجوقشاه والحاكم انكيانو وشمس الدين حسين ومجد الدين.

ولقد كانت عبارات مراثيه فخمة مؤثرة سوا في أمراء شيراز أو في الدولة العباسية كما سنتكلم عنها فيما يأتي.

أما الملمعات ففي مزيج من الشعر الفارسي والعربي عمد فيه السعدي إلى وضع الصدر من البيت بإحدى هاتين اللغتين ووضع العجز باللغة الأخرى ثم عكس هذا الترتيب في البيت الذي يليه وهكذا

مع توافق القوافي . وتسمى ملمعات

ولقد كانه أحيانا يزيد على ذلك لغة ثالثة وهي التركية فيكونه هناك ثلاث قوافٍ مختلفة اللغات مع توافقها . ولذلك سميت بالمثلثات .

أما الترجيعات فهي أشعار متحدة القافية مما يدل على ضيقها وعلى مقدرته أيضا وما كانت هذه الصعوبة لتحول بينه وبين إبداعها معجزات خواطره .

ويأتي بعد ذلك شعره العربي وقد جئنا بأمثلة منه تدل على مقدرته فيه وأجوده الغزل الذي كانه يمزج فيه خياله وقيل على جانبيه رقته فعده معاصروه من خير شعره حتى قال جامي مؤرخه أنه فريد عصره في الغزل وعده دولتشاه أحد أنبياء الشعر .

وأشهر قصائده الغزلية المسماة بالطيبات وهي تتناول نحوه ، وزنا شعريا مختلفا

وهناك له شعر عربي آخر في الله سماه البدائع

وهي مسبة في محلها لما لهذا الشعر من المكانة.

أما خواتيم فقد أفرغ فيها كل أساليب الفن مما يدل على أنه وضعها في العهد الذي كتب لشعر فيه الكمال وهو يذكر فيها عشقه له. وقد أهدى هذه الخواتيم إلى أمير شيراز أبي بكر ملقبا إياه بأبي النصر كما فعل في الطيبات.

وأما الغزل القديم فربما لم يبلغ من الأهمية إلى حد أن يوقفنا على الأسلوب الذي كان متبعا عند الكتاب القدماء في هذا النوع.

وليست الصاحبية أو الصاحبنامة إلا عبارة عن تقويم يومي بالشعر لا تقوم على وحدة ثابتة فهي أشبه بالأمثال المنظومة.

وربما كانت الصاحبنامة خيرا من هي للعقول لفهم السعدي لأنها تحتوي على آراء عن الحياة وتجاربه فيها وهو ينظر أخيرا إلى العالم نظرة حنو وانعطاف. فيوصي

بالعدل نحو الرعايا وبالحذر من العدو وبالطيبة نحو القريب وبالصبر على الحوادث بعبارات سهلة موجزة وفكه خالية من الصور ولهذا كانت لا ترتفع إلى مستوى البستان والجلستان من هذه الوجهة وإنه كان لا يصح والد رشاد فيلم مكدسيه نكدبا.

الجلستان :

[دلمر من أصلية فارسية (جل) أي ورد و (ستان) أي مكان]

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية فتداولته الأيدي في بلاد العرب والشام والروم ومصر كما ترجم إلى اللغة التركية أخو السلطان عبد الحميد خان وهو رشاد باشا.

أما ترجمته إلى اللغات الأوربية فلا عداد لها فقد نقل إلى اللغة اللاتينية بمطبعة استردام وإلى اللغة الفرنسية بمعرفة قنصل نصراني وانزجين

طبع بباريس في سنة ١٦٤٤ كما نقله إلى اللغة الألمانية الأستاذ أولى إيرسى وإلى الانكليزية بمعرفة غليدون بناء على طلب الجمعية الأسيوية .

على أنه ترجم إلى كل لغة من هذه اللغات عدة مرات مما يدل على عناية اولئك الأقوام به واهتمامهم بشأنه .

ولم تكن الهند أقل منهم اهتماما فقد ترجم شبر على افسوس إلى اللغة الأردية في عهد ماركوس ولزلى حاكم الهند العام . ولكنه ترجم بعد ذلك عدة تراجم أوسع بيانا وسهولة .

وللجلستاند تراجم أخرى باللغة البنغالية و الغجراتية . وقد بلغ من تقدير الهندله وللبستاند أنهم تدريسها في كل المكاتب كندريس كليلة ودمنة هنا بصر على ما أشرنا إليه في المقدمة .

نعم إن الجلستاند جدير بهذه العناية وهو كتاب

فريد لحسن تبويبه ورشاقة اسلوبه وجزالة لفظه وسهولة
عباراته وبديع استعاراته وخلوه من كل غموضه وارتباط
معاييل على أن السمدي صرف فيه نظرا كبيرا من عمره
كما أشار هو نفسه إلى ذلك في صدره.

وكثيرا ما يذكر السمدي في خلال هذا السفر شيئا
مما صادفه في حياته من الحوادث أو مما يكون شاهد
منها أو سمعه من ألسنة الناس أو عثر عليه
أثناء مطالعاته حيث جمع كل ذلك في أبواب ثمانية خصص
لكل باب منها فصلا وحكاية تناسبه وهو لا يقتصر
على سرد الحادثة بل إنه يذكرها ويذكر معها نفسه من
تناول لها ولا يخرج ذلك أمور الأخلاق بحيث لا
يترك القارئ من إحداها حتى تكون نفسه قد تملت من
كل من أسلوبه وتطهرت بوعظه

ولقد كان من سبقه كالقاضي حميد أبي بكر كتاب
مقامات حميدي يقصد بالسجع على مثال مقامات الحريري

وبديع الزمان وكقابوس بن اسكندر أحد كتاب القرن الخامس الملقب بفصيح المعالي في كتابه قابوس نامة الذي نسج على هذا المنوال الضيق أيضاً فما كانه كلاهما حرا في إرسال عباراتهما على ما كانه يجلو معانيها وهي أسيرة تلك القيود حتى جاء السعدي فوضع جلستانه في هذا الثوب الجديد البعيد عنه تكلف السجع فخرج به من تلك الدائرة الضيقة إلى فضاء المعاني يتخطر فيه قلم كما يتخطر القضيب الرطيب في الروضة النضرة فهو من هذه الوجهة يعد مجدداً. وقد حطم تلك القيود ولم يبالها وعمد إلى الكتابة المرسلة التي تتدفق فيها المعاني على أسلوب السهل الجزل الممتع حتى كانه من نصيبه ذلك الإقبال الكثير في كافة الأوساط على ما ذكرناه.

البستان

أما البوستانه وهو كالجلستانه من أصليه فارسيه (بو) ومعناه العطر و(ستانه) ومعناه مكانه

فهو من أكبر مؤلفات السعدي ويمكن أن يقال الجلستان صورة قريبة منه مجردة من التصوف.

والبستان يبتدئ بحمد الله والثناء على رسوله والخلفاء الأربعة كما فعل جلال الدين الرومي والعطار إلا أنه خال مما لهما من الذهول والمذهب الحلولي. ثم بعد الفراغ من مدح الأمير الحاكم قبل الانتهاء من المقدمة يفيض السعدي في غرضه من هذا الكتاب:

«لقد أقمت هذا الأثر تخليدا للحكمة وجعلته في عشر فصول». ويتناول موضوعات هذا الكتاب القيم العدل والحذر وسياسة الحكم ومخافة الله وفعل الخير والنصائح والشكر والعشق والتواضع والصبر والقناعة والتربية وشكر الإفادة للمحسن على فضله والندم وسلوك سبيل الهداية والسلامة وبعضه أدعية ثم خاتمة شعرية.

ولا يختلف البستان عن الجلستان أيضا إلا من حيث صعوبته لأنه في الشعر حتى كثرت تراجم الجلستان

لسهولته

ولقد خلقت هذه الصعوبة تيار بين من الشراح
أحدهما من جهة الهند، وهذا الشرح هو الذي
أخذ به جراف واعتمد به في طبعة فينا ١٨٥٨م.
والآخر من جهة التراك وبين شامي
سروري وسوري الذي طبع في النصف الأخير
من القرن السادس عشر فينا بشروح من
سبقوه.

أما سروري فله شرح فارسي كما أنه شرح
الجلستانة باللغة العربية. وهذا الشرح الأخير
يحتوي فوق ما تضمنه من التفسير وذكر الأعلام
هامشه.

وإذا كانت البستان نظرا للصعوبة السالفة
لم يعرف مثل الجلستانة في أوربا فإنه يعد كما ذكرنا

من أمهات كتب السعدي بشهادة المستشرق القدير
ج. مولعل الذي يقول :

" لا أدري لم أهمل هذا الكتاب في أوربا وقد حوى
من القصص ما عقبه السعدي بالأمثلة الأخلاقية
مما يجعله جديرا بالشهرة التي نالها الجلستان "

٦

السعيد والمجتمع

الطفل (٩٣) — المرء مع جاره وصاحبه وغيرهما (٩٧) — السعادة في نظر السعيد (١٠٣) — المال (١٠٨) — الصبر (١١٠) — الشجاعة والعزيمة (١١٤) — اللطف والإحسان (١١٦) — معاملة الفرد للناس (١١٩)

السعدي والمجتمع

لقد رأينا كيف أن حياة السعدي منذ عهد طفولته إلى شيخوخته كانت تجري دائما خلف ارتشاف كؤوس التربية والعلم سواء منذ أبيه في صغره أو أساتذته في بغداد ومنذ الحوادث في رحلاته العديدة ومخالطته لجميع الناس.

ومثل هذه الحياة التي كتب لها النضوج فالكمال فملكة تقدير الأمور والحكم عليها. حياة أصبحت منبعا فياضا لا يستريح إلا إذا سالت منه جنباته جداول الإرشاد والنصح والتعليم وفجرا وضاء ينشر حوله أنوار الهداية فيضيء الطريق عند إقدام الجاهليه والخاطئين.

لذلك نرى في السعدي موسوعة فياضة منه موسوعات الأدب والمذهب والعلم واستاذا ماهرا عاما للفرد وللمجتمع وطبيبا بارعا شاءت الأقدار أن ترسله إلى

الناس ليكشف عن نقائصهم ، ويبحث عن الأسباب الشافية لنفوسهم ويعلمهم معنى الحياة والسبيل إلى السعادة الصحيحة .

كان العلم وأدب السلوك عند السعدى رأس مال غير قعيد يعز عليه أن لا يثمر ثمره وشجره باسقة نامية . تأخذ الحرة عليط إذا لم تؤت أكلها حتى أنه لم يكن شاعرا رقيقا فحسب بل كان مدرسة عامرة بالعلم والحكمة تخومه في البدن أنه في كل أدوار حياته ثم في تلك الحياة مرتبطة بعمه عداها وهكذا يدخل في الحكم على الجماعات من طريق الحكم على الأفراد كأنه كان يرى في نفسه مرآة عامة تنعكس فيها كل تلك القوى .

والسعدى في كل هذه الأدوار وفيه البحث بعيد النظر سليم الذوق يحب حبا للأمزجة المتفاوتة والطبائع المختلفة والغرائز المتنافرة كما سنراه .

الطفل

ويدل على أنه قبل أن يتناول الطفل يتجه إلى أبيه الذي هو أول معلم له في نشوءه فيقول له إنه ابنك بضعة منك وصورة لك وعجينة تُخذ شكل القالب الذي توضع فيه فليكن هذا القالب رشيقا قويا ولتكن رشاقته راجعة إلى العلم وقوته راجعة إلى الطهارة وهكذا تترك من بعدك ماضيا نقيا فلتجعل من بزارك فرطا صالحا وإلا فكأنك لم تترك عقبا (١)

وبعد أن يتنبه الوالدين إلى هذا الواجب الأول العام يتنبه إلى ما غرست الطبيعة فيهم كافة من غريزة الحنو وأن هذه الغريزة قد تكون حائلا بينهم وبين القيام بذلك الواجب فيطلب من كل أب ألا تأخذه الشفقة على ولده إلى حد ضار بتلك التربية فيوصى بالشدة مع الصغار ولكن مع العدل والحزم لأن الأطفال في الحقيقة لا يميزون بين ما يضرهم

(١) جلستاد ص ٩٦

وما ينفعهم إذا لم يكسب لهم سمة آبائهم لجام يكفل لهم سلوك الطريق المأمون .

وكذلك يتنبه إلى ما يكون لهم سمة حسنة الخلق في الحياة من أمور العباد والبلاد فيخشى أن يتسرب إلى أذهانهم أن الفريضة من العلم هو الوصول على المال وما دام هذا قائما فلم يرد صقوبة أبناءهم الصغار النحل في سبيل غاية وفرضا لهم إقبال الحياة عليهم ولذلك فريضة عليهم فرضا أن لا يقفوا في تلقينهم من مقاعد العلم ساعة من ساعات دراستهم من أوقات الفريضة وفي ساعات العبادة في أوقاتها أو تكون في الأوقات فصلوا أشتاتا .

وهذا ما ينتهي إليه من جهاد الروح والنفس أكبر الأثر في تهذيب نزعات الشر في نفوس الأبناء

وعلى الآباء والأمهات ليتما من أبوية أو من أبوة أو أمومة في الحياة وشر فيها بعيش

بحيث لا يجب مقطعا من الزمن ليتفرغ إلى تأديبه فيخلي
إلى إسناد هذه المهمة إلى غيره ولذلك يوصي باختيار
ذلك المؤدب لأنه في منزلة الأب سواء بسواء ولأن
الأطفال يستمدون غذاء أخلاقهم من أخلاق معلميهم
أما المعلم الذي لا يخلص فكالقرحة في الخز الجميل
وكذلك الأب الذي يفرط في هذا الميثاق فإنه والد مع
الولادة لم يسبق إلى القبر وهو تعبير جزل رقيق
معناه أن الأب في مثل هذه الحالة يوصي على ولده بيده
في حياته.

ولما رأى السعدي بين المعاصرين ميلا إلى أن الأدب
قبل كل شيء في العناية بالطفل من صغره وهو أيام
المهد لأن العوارف تغرس وتبقى أيام الصبا أقوى
من عهد الإلف بالنار وربما [illegible] من
المنزل الذي يتعلم فيه أفضل « التعليم في الصغر كالنقش
على الحجر ». وهذا الأمر

إنه العصون إذا قومتها اعتدلت

ولست يلينه إذا قومته الخشب

لأنه الثمار تصلح من الأعوجاج وهي ظاهرة طبيعية فاتت الشاعر العزلي ولأن السعدي يرمي بخياله إلى إمكانه الإصلاح دائما حتى ولو بالثمار بعكس الشاعر العزلي الذي يقف به اليأس عند الكبر. وعلى كل حال فوجه الشبه قائم بين الشاعرين من حيث أنه في الإمكان تلافي هذا الأعوجاج من الصغر قبل أن تصون فرصة هذا اللين.

ويوصي السعدي أخيرا الطاعة المطلقة ولأن الابن لا يذوق حلاوة الأبوة يدفع بنفسه فيما بعد لشقوة الحياة. ولا شك أنه لا يطلب هذه الطاعة من الطفل إلا متى شب وأدرك وميز حتى يجعل من نفسه مؤدبا مهيأ لنفسه يعتد بعيوب النفس فيصلح من العيوب التي فيه (١)، بل أنه يستنبط من هذه النصيحة

---

١) جلستان ١٤٤

كلمة من أسمى الحكم الداعية إلى الرحمة ما دام أن الذي يرى عيب نفسه يعذر الناس على عيوبهم.

ومن غير شك أن الإنسان الظاهرة عيوبه تكون عرضة لنقد الناس وهو نقد يراه البعض نقدا يجب أن نتحمله بالرضى إذا أردنا أن نصلح من أنفسنا.

أما الطفل الذي مرنت طبيعته فوقفت عائدة جيدا يحول بينه وبين فاصل التربية والعلم فأنه إذا عدل عن رأيه لا في . لأنه التأديب مع مثل هذا في نظره عقيم.[1]

— « المرء مع جاره وصاحبه وغيرهما » —

لا يكاد يفرغ المرء من النظر إلى نفسه حتى تتحول عيناه إلى ما حوله . وعند ذلك يجد نفسه إما إلى جانب جار أو أمام صديق أو مع غيرهما لأن الإنسان مدني بطبعه لا يستطيع أن يعيش بعيدا عن الناس.

ولنخرج آراء السعدي في هذا الصدد عما هو

---

[1] جلستان ٢٢٩

من الأمثلة العربية المتداولة «خذ الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق».

والسعدي يدرك حرص الجار على جاره مما يدفعه أحيانا إلى نصحه إذا أنس فيه عيبا شفقة عليه ورحمة به فإذا كان الأمر كذلك فلم نتألم من جارنا إذا وجه نقدا إلينا حيما وأنه أساس الصحبة أنه لا يغشى جاري فيكتم ما يراه من نقائص. والسعدي يصوغ هذا المعنى في أسلوب على غاية من الرشاقة ورقة التصوير، وحسن التخلص الذي من يفضي إلى الأشواك التي تعترضه قدمي في طريقي[1].

ونحن نرى أيضا أنه للجار حق شفقتنا بما يلحق من عيوبنا لأنه من مصلحته أن يكون جاره صالحا كما أنه من مصلحتنا أن يكون هو أيضا كذلك.

وكان السعدي مع ذلك ينذرنا من الاعتماد المطلق

A.B. Khairat.

(1) بستان ٦٩

على الصديق ويحذرنا من الثقة به الثقة المطلقة العمياء وقد يكون أساس هذا التحذير عدم تجنب العداوة أينما كانت حتى أنه ليرى ملائم العدو وإن من خير من الصديق الذي يدفعه حبه إلى السكوت في مواقف النصح

نعم قد يؤخذ على السعدي هذا القول لأن عدوي لم ينكر مطلقا في تقويمي بتنبيهي إلى ما يكون في نفسي من المعائب والمساوئ ولكن العدو مع هذا قد يندفع إلى ذلك لا من طريق الإخلاص والنصح الرحيم الرشيد وإنما لأن ثورة الغيظ وشحوة الحقد متملكانه فينبرنا إلى ما هو فينا من طريق التعيير . ولقد كان الإمام علي كرم الله وجهه يقول « رحم الله من أهدى إلي عيوبي » ولعل بداية مصدرها مطلوب قد تكون من الصديق كما تكون من العدو ولم يذكر الإفرنجي أما استنزال الرحمة على ذلك الرجل وإن كان عدوا فلا غضاضة

فيه لأنه العدو النافع أولى بالرعاية من الصديق الضار
وعدو عاقل خير من صديق جاهل والحكمة ضالة المؤمن
التقطها أينما وجدها .

وعلى كل حال فلا يوجه مثل ذلك الاعتراض
على السعدي إذ إنه يأخذ قوله على ظاهره بغير تدبر
وتحليل ومع ذلك فمن يضمن أن العدو والصديق كلاهما
لا يخون وهكذا يجب على المرء أن يكون حذرا من
كليهما وأن لا يفلت فرصة الاستفادة من أيهما

احذر عدوك مرة ★ واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديـ ★ ـق فكان أعلم بالمضرة

والسعدي يرى أن للنصح سياسة خاصة كما لغيره من
بعض شؤون الحياة فهو يوصي بأن يكون النصح في لين
لأنه قد يكون من وراء الخشونة أن تجرح طبيعة المنصح
فتنفر من قبول ولأنه قد يكون خجولا من إظهار جهله
فتفوته الاستفادة بمثل تلك الشدة . ويجب أن يكون

منه يتصدى للإرشاد على علم غزير حتى يخرج تلميذه كاملا أما إذا كان جاهلا فلا يكون تلميذه فيما بعد إلا صورة منه لا يرجى عنده وقتئذ نفع . وعلى المتعلم متى استوفى نصيبا من التعليم وافرا ألا يبخل بعلمه على غيره وإلا كان في مستوى المعلم الجاهل لأن العلم الناقص كالجهل التام ، والناس مجهلاء لا ثمرة من جهودهما - غني لا ينتفع بماله ومدع يضل الناس أو عالم لا ينتفع الناس بعلمه .

وهل ما ذكر خاص بحياة الشباب المعنوية من حيث التربية الخلقية والعلمية ولكن هنالك حاجة أحس لأنها تتعلق بحواسهم وما يعترضها من سبل الشهوات حتى قال السعدي « كما أن العلم أساس لسلامة الفكر فكذلك عصمة الهوى وحكم النفس

أساس لسلامة الجسم،

ولقد جرّ هذا شاعرنا إلى المفاضلة بين مملكة العقل ومملكة الغريزة وأيهما أولى بالتفضيل والإتباع ولكنه لم يتردد في وجود تحكيم العقل دائما لأنه الغريزة عامة عند الإنسان والحيوان أما العقل فهو وحده يميز بينهما (١)

ولقد كان السعدي شابا يعرف ما السلطان الشباب القوي الجبار من التسلط على النفوس وما يلزم لاتقاء غوائله من محاربته حتى تتجرد نفس كل فتى من الأوزار وتحصل على طهارة حريتها ولذلك أوصى كثيرا بمجالدة النفس لأنها أعدى أعداء الإنسان والطبيعة العاصية كلما أرخيت زمامها زادت جموحا وفي مثل ذلك يقول الشاعر العربي أيضا:

---

(١) كلكتا ٤٤

وخالف هواها ما استطعت فإنما
هواها عدو والخلاف صديقه

وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى.

لهذا حذرنا السعدي كثيرا من المرأة كما جاء في الباب الخامس من الجلستان ودعانا إلى عدم الاندفاع إلى الزواج قبل أن نبلغ سن التجربة (١)

ـ السعادة في نظر السعدي ـ

إلى هنا تناول السعدي الكلام على الإنسان عند نشأته وبعد أن يشب ويميز بالنسبة لنفسه وبالنسبة لعلاقته بغيره وهذا الجزء الأخير هو أساس دخوله في زمرة المجتمع ولكنه أساس لا يتحقق إلا بكيان هام هو الحرية الشخصية التي هي أكبر مظهر من مظاهر حضارة الاجتماع.

---

(١) جلستان ١

يرى أنه المرء لكى يكون سعيدا يجب أن يكون حر استقلال
لا عبد الناس ولكنه فى دائرة نفسه لأن هذا الاستقلال
فى نظره نافذة تطل منها النفس على آفاق الآمال
تراها دانية قريبة التحقيق فتمتلئ تفاؤلا
(optimisme) ولا شك أن التفاؤل هو أساس
السعادة لأنه ناشئ عن الأمل الذى هو نصف النجاح
ومتى توافر هذا الركن فى نفس كل إنسان تهيأت
أسباب السعادة للمجموع كله.

ولم يفت السعدى الكلام أيضا على الجانب الشخصى
من ذلك الاستقلال وهو الجانب الذى يبرأ بالنفس
عن الانحطاط دنايا ويعصمها عن مواطن الخسة ويفتح
أمامها مستفاض الطرق التى تصل بها إلى هيكل العزة فيبيح
لها أن تتناول شيئا من يد المسىء ولو كان شكرا لأنه مع تلك
السعادة لا يكون إلا أمر من الحنظل (١) والأيام بيننا

---

(١) صلاح نامة ١٦٥

إلى وشبع ولو متنا لأنه خير للمرء أن يموت عزيزا من أن يعيش ذليلا.

ولا تتيسر ذلك إلا إذا احتقر الإنسان ما في أيدي الناس قانعا بما في يده معتقدا أنه يكفيه ما يتبلغ به من القوت ليعيش ويعبد الله(١)

نعم إن مما جاء في الأمثال العربية ما هو «رب أكلة منعت أكلات» وأيضا قول الشاعر:

كم دخلت أكلة حنا شرة ★ فأخرجت روحي من الجسد

وإن الحديث الشريف يقول «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع». والسعد لم يتعرض لذلك في ما ذكره ولكنه مفهوم منه ضمنا لأن أقل ما يترتب على القناعة هو الحكم على شهوة البطن والبعد عن النهم وعواقبه.

---

(١) جلستان ١٦٢

ولكنه مما نلاحظه أن السعدي كان رجلا عمليا فهو حينما يقول أنه يكفي الإنسان ما يسبغ به العراء ليعيشه ويعبد الله يجذو حذو الحديث الشريف: إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، رغم ذلك فإنه لا يريد أن تصل القناعة بالإنسان إلى التقتير على نفسه وعياله.

ومن أقوال السعدي: «لقد ولى الأمس والغد لم ينل بعد فلا تفكر إلا في ساعتك» وهو قول يشبه من الوجوه بهذا الشعر العربي:

ما مضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التي أنت فيها

ولكننا رأيناه فيما سلف يصل إلى التفاؤل الذي هو أساس السعادة من طريق الأمل والأمل يدعو إلى التفكير في الغد وما بعده وربما ذهب الناس إلى أنه نياقصه نقص هذا الصدد ولكنه الحقيقة أن الغد مجهول ولا يدري الإنسان ما هو مخبوء له عنده في صدر الغيب فالسعدي

يريد أن يشغل الإنسان نفسه بمخاوف المستقبل وأن يكتفي بالساعة التي هو فيها حتى لا يجره ذلك إلى مذهب السخط والتشاؤم (Pessimisme)

ومع ذلك فإن السعدي انتهى إلى هذا المذهب (التشاؤم) بالرغم منه وهو يرى أن الإنسان في الحقيقة مخلوق ضعيف حقير أمام عالم فسيح تسبح ظواهره الخلابة في بحر من الظلام حتى ذكر أنه شيخا كان يتعبد تحت شجرة مباركة يحج الناس إليها وهو يطلب من الله أن يرزقه ولدا فلما وهبه إياه سخط هذا الولد على الدنيا وتمنى لو أنه يعرف مكان تلك الشجرة فيسأل الله أن يقضي على أبيه. فالسعدي في هذا الموقف يتفق مع أبي العلاء المعري إلى هذا المذهب الذي أطلقه لسانه بهذا البيت المأثور

هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد

وهكذا يعود فينظر إلى العالم من خلال منظار قاتم

اللوم ويرى أهل الشر إذا لم تطوى جوانحهم إلا على الكذب والحقد فينصح بعدم الاعتماد عليهم والاطمئنان لهم وهو يرى أن الجاهل قد يتغلب على الرجل الحكيم بما انغرس في لسانه من قوة الشقشقة كرائحة الثوم العفنة التي لا تترك إلى جانبها أثر الصوت الندي (١)

ومع ذلك فإنه لا يستقر عند هذا الخاطر حتى يعود فيوجه مرآى الناس عامة ويغمرهم ذلك الشقاء فيبكي لهم ويحنو عليهم ثم ينتهي به المطاف إلى هذه الخاتمة الأليمة وهي أن يقنع كل إنسان بالحظ الذي كتب له.

- « المال » -

ولو أن السعدي يدعو إلى القناعة والزهد على قدر المستطاع إلا أنه لا يرى رأي المتصوفة في المال

---

(١) جلستان ٣٧٦

كفريد الديه المطار الذى لا يفترعه مدح الفقر لأنه
السعى ميال إلى الاعتدال ولكنه رأيه على كل حال
بالنسبة للفقير والغنى يختلف باختلاف أحوال المجتمع
فيقول مثلا للمحتاج تحمل الفقر ولكنه انفضه مع ذلك
وإذا اشتد بك فلا بأس منه أنه تمد يدك إلى الناس
لأنه ذلك خير لك من السرقة (١) ويقول للغنى ليس
الغرض أنه تسعى وراء كنز الأموال لأنها إنما
أعدت لتكون وسيلة للحصول على مرافق الحياة (٢)
نعم إن المال فى نظره يكسب صاحبه قوة حتى
أنه الغنى ليضحك على الشيطان ويكون مقربا من
السيدات الحسان (٣) ولكنه يمقت الرجل الذى يقطع
عمره عبدا للمال لكى يبقيه ولده من بعده. لأنه الذهب
إنما أعد ليسد فراغ مطالب الحياة لا ليدفنه فى بطن

---

(١) جلستانه ١٨٥ (٢) جلستانه ٢١٠ (٣) صاحبنامة ٩٩

الأرض حتى يكونوا كبعض الأحجار (١)

ونظهر رأي السعدي في المال بوضوح من حيث أثره في المجتمع من المقارنة بينه وبين المتصوفين فإنه هؤلاء ينفثونه دائما سموم أحقادهم على الأغنياء مما هو فيخرج في ذلك عليهم قائلا : إن الغني الرشيد المتنير من أكبر المعينين إلى الهيئة الاجتماعية (٢) وبعبارة أوضح أيضا : إن المال تتجلى قيمته بما تستخدمه فيه من تحقيق المنافع لا بأنه نظل له عبيدا (٣)

- « الصبر » -

ومتى تكلم السعدي عن القناعة وعن رأيه في الفقر والمال فقد كان أيضا منتظرا أن يذكر شيئا عن الصبر .

أليس الصبر في الحقيقة إلا علاجا تتطلبه النفس

---

(١) بستان ١٠٨ (٢) جلستان ٩٢ (٣) جلستان ١٢١

إذا ثارت بطائرة الغضب ولذلك يصح السعدي بالسكونة والهدوء ويقول أن ثبات النفس ألزم في حالة الغضب منه في ساعات الحروب (١) وهو تشبيه لطيف مقصود لذاته العراك الذي تكون النفس ميدانا له بين الغضب والحلم عراك عنيف لا يقل عما يقع في ميدان القتال حتى أنه يقول « وهنه نفسك على الصبر » لعلمه أنه شديد عسير (٢)

والسعدي يذكر بعد ذلك عاقبة الذي لا يصل على هذه الفضيلة حيث يقول إنك بغير الصبر تمنع الحكمة تفرسه بديك (٣)

على أن الإنسان الضعيف يستمد منه الصبر قوة في ساعات الابتلاء وفي هذا يقول السعدي: « أيها المظلوم احتمل ظلم القوي بالرضا فلا تطلب القوة

---

(١) بستان ٩٢ (٢) جلستان ٥٦ (٣) بستان ١٠٧

أن تكون إلى جانبك وليكن لك من شجاعتك سلم يرفعك عند الشدة ولن تأمن قدماك مزالق الخطر إلا إذا دب في أخلاقك عزم ماضٍ»(١)

ونرى من هذا أن السعدي لا يكتفي بالصبر وحده بل يطلب أن يكون معه أيضا شجاعة وعزيمة قوية ومع ذلك فإنه يتلاقى مع نيتشه الفيلسوف في أن الرحمة واللطف من أسمى صفات الإنسان(٢) وأن النفس السامية تميل إلى من هو أرفع من الأقوياء والضعفاء شعاعا من نور الانعطاف أما الذي خلا فؤاده من هذا النور فليس في نظر السعدي بإنسان.(٣)

وفي هذا المقام يضع السعدي حكما للإنسان مع المساوية له وبالنسبة لمن هم دونه فيصح في الحالة

---

(١) بستان ص ٤٤ (٢) جلستان بستان ص ٨٤ (٣) جلستان ص ١٤٨

الأولى بأن نتعلم كيف نتحمل انفعالات الناس
نحونا قائلا: «إذا كان خلق يتنافر مع خلقك فاحذر
أن تتأثر به فتنسى ما لخلقك من المحاسن»(١) أما في
الحالة الثانية فيوصي بالرحمة وحماية الضعفاء
قائلا: «لا تكن يوما ما سببا في جزع القلوب فإن
نفثة واحدة من زفرات المظلومين قد تغير وجه الأرض»(٢)
ولكنه لا يذهب فيما ذكر مذهبا مطلقا لأنه كان
العالم الناقص لا يخلو حكمه من نقوص شريرة تستحوذ
نفثة الحياة فإذا حنقت عليك جلبت الأذى على من
حبيبوه بهذه النعمة ولذلك يقول: «لا شيء أجمل
من العفو ولكنه حذر أن تضع ضمادة على جراح
الذين يتسببون في عذاب الناس»(٣)
ومع ذلك فإنه يشير بالتلطف مع الذي لم

---

(١) جلستانه ٤٤٤ (٢) جلستانه ٧٨ (٣) جلستانه ١٥

يسيء إليه إلا مرة واحدة (١)

معاملة الفرد للناس

أفاض السعدي بما سلف فيما يجب توافره لتحقيق سعادة الفرد والمجتمع وما يرتبط بذلك من اختيار الجار والصديق والتجمل بحلة الصبر عند الشدائد وعدم استنكار نقد الناس وسيلة استعمال المال ولكنه لا يذهب إلى أبعد من ذلك إلى معاملة الناس بعضهم بعضا وأول ما يشير به هو السكوت الطويل أو الإقلال من الكلام لأنه في ذلك فريقين فالسكوت يستريح الجاهل من جهة ومن جهة أخرى فإنه قطع الوقت بالتفكير واجب قبل الاندفاع إلى النطق أو إلى العمل وهو في هذا الصدد يرى أن الكلمة إذا خرجت من فيك فلن تملك عودتها إليه (٢) على حد قول الشاعر العربي: "إن البلاء موكل بالمنطق"

---

(١) جلستانه ٧٥ (٢) صاحبنامة ٧

وإذا كانه مجرد خروج الكلمة سدا لفم مدعاة في بعض الأحيانه إلى الندم فكم تكونه حسرة الإنسانه إذا خرجت هذه الكلمة لي دائرة الفعل .

أما إذا كانه الكلام في معرض محاورة فالأولى لك أنه تتمتع كل الاستماع لمه يحدثك لأنه حديثهم أساسي يقوم عليه جوابك ويعطيك الفرصة لتخير أسلم الطرق التي تصوغ فيها هذا الجواب (١)

ثم حذار في غضونه حديثك أنه تعلنه شيئا من أسرارك الخاصة حتى ولو كنت تتكلم مع صديقك لأنك لا تأمن أنه ينقلب عدوا لك فيما بعد (٢) . وما دام أسلس ما سلف هو عدم الوقوع في الخطأ قولا أو عملا فإنه الأخذ بالمشورة في هذا المقام واجب أيضا لأنه من يقدم على عمل بغير استشارة يطيش سهمه (٣)

---

(١) جلستانه ٥٠٩ (٢) جلستانه ٤١٤ (٣) صاحبيانة ١٠١

ومع ذلك فإنه السعدي ينصح بتقدير مشورة الناس قبل الدخول في أي نشاط قد تكون مضارة ويظهر أنه يعود ثانيا فينصح بعدم الإكثار من الاستشارة حيث يقول :- « خير لك أن تحمل عبأ تتعبك وحدك من أن تجعل لغيرك بسببك فضلا عليك (١) » وهو في هذا المقام يعود إلى التنبيه بالمحافظة على عزة النفس . ومع ذلك فإنه عدم الاتكال حتى على المشورة الناس مما يخلقه في النفس ملكة الاستقلال والاعتماد على التفكير الشخصي ولكنه السعدي أدرك فورا أنه مثل هذا الاستقلال إذا تمكن من الإنسان قد يدعوه إلى الغرور . فرأى أنه ينصح باجتنابه لأنه اغترار الناس بأنفسهم قد يفهم أحيانا إلى المجازفة العقيمة فيوقعنا في الخطأ ولذلك يقول : « وكل من يواجه الصخور جرئ حقيقة ولكنه

---

(١) جلستانه ١٥٩

جاهل(١) وهو ينصح بذلك حتى ولو ابتسم الحظ لكل جرو
لأنه الحظ كثير التقلب .

ومن الأسباب الداعية إلى الغرور مدح الناس
لك والثناء عليك ولكن حذار أن يخدعك مثل هذا لأنه
قد يصرفك عن تحليل مالك من الصفات وإذن يجب عليك
أن تنزل دائما إلى أعماق نفسك لتتبين حقيقتك لأنه
لا يعرف غير الإنسان وحده قيمة نفسه(٢)

وربما كان من الواجب أيضا قبل الاندفاع إلى عمل
ما أن يجرب الإنسان مع شهوة نفسه لأنك عياء ،
وأن ينظر إلى غايته من بعيد حتى لا تزل قدمه أما إذا
وقع بين سبيلين مختلفين فليسلك أخفرهما ضررا(٣)

والإنسان في الحياة عرضة إلى الاختلاط بكثير
من الناس وقد يكون منهم أشرار فمثل هؤلاء يجب الابتعاد

---

(١) صفحة ١٨١ (٢) جلستان ٨٨ ، ٤٠ ، ١٨ (٣) جلستان ٤٢٤

عنهم لأنه لم يستفد الإنسان عنهم شيئا طيبا (١)
ومع ذلك فإنه في سائر تهم شبهة . قد يكون الإنسان
محلا للاتهام بمثل هذه السيرة (٢)

وقد لا يخلو الإنسان حيث يشتبك مع الناس من
أن يكون له منهم عدو . والسعدي في هذا المقام ينصح
بالتخلص منه بقتله وإلا يكون عدو نفسه (٣) ولكنه قبل ذلك
يجب أن يحافظ نفسه حسابا طويلا وأن يكون الانتقام في وقته
حتى ينتج أثره . — على أن السعدي كثيرا ما يتجاوز عن الإساءة
ومقابلة الإساءة بالإحسان فلم أشار بالانتقام على الوجه
الذي سلف . إنه هو نفسه يعلل ذلك بما يستفاد منه البعد
عن الانتقام حيث يعلله بأنه يرجع في الغالب إلى دافع نفسي
حتى أنه يقول إذا لم يكن منه المحمود اسداء الجميل لغير من
يستحقه ولكنه مع ذلك يجب التردد في إسدائه كالتقدم إلى

---

(١) جلستانه ٢٢٢ (٢) جلستانه ٢٢٩ (٣) جلستانه ٢١٥

السعدى والسياسة

(١١٩)

هل السعدى مبتكر فى الكلام عن السياسة (١١٩) ـ الملكية والسعدى (١٢١) ـ رأيه فى تربية الملوك (١٢١) ـ الصفات الخاصة بالملوك (١٢٢) ـ العدل (١٢٢) ـ الرحمة والرفق واللين (١٢٣) ـ القواعد الهامة الأربعة الضرورية للحكم (١٢٤) ـ القاعدة الأولى الخاصة بالملوك (١٢٤) ـ القاعدة الثانية الخاصة بالرعية (١٢٤) ـ القاعدة الثالثة المتعلقة بالحكومات (١٢٤) ـ القاعدة الرابعة الخاصة بالله (١٢٦) ـ الصفات الهامة التى يجب أن تتوافر فى الملوك (١٢٦) عنايتهم بنظر الشكاوى (١٢٦) ـ بعد النظر فى كل شئ (١٢٦) ـ الحذر مع القوة (١٢٧) ـ المال والتحالف (١٢٧) ـ ضرورة التخلص من العدو الداخلى (١٢٧) الدقة فى توقيع العقوبة ومكافأة الجميل (١٢٨) ـ العفو (١٢٩) ـ العناية بخلف الأقيم (١٢٩) ـ ضرورة التخلص من الملك المستبد (١٣٠) ـ أعداء الملك الخارجون ووجوب التخلص منهم (١٣٢) ـ نصيحة السعدى للملوك (١٣٢)

كتب بإسنادة أنيابه فاندفع إليه بقطعة تلهيه بطلاوة لا شك أنه ذلك صدر الرأى

وملخص كل هذا وجوب مقابلة الأذى بالأذى لأنه الإحسان إلى الشهداء خطأ كالإحسان إلى الذئاب فإنه يجرؤهم على الخراف (٢) على أنه معاملة الشهداء بالحسنى كوضع البذرة فى الأرض المجدبة (٣) ولذلك يرى السعدى أنه يكون الإنسان مع الناس حيث يكونون كالوردة وكالشوكة مع الشوك .

- « السياسة » -

هذا البحث عام لأنه يدور حول سلطان الملوك والحكومات نحو رعاياهم فهو يتناول الجماعات كلها حيث ارتباطها بهم . لذلك سياسة الأمم من أشد الأمور . والسعدى لم يكن مبتكرا حين كتب فيها فقد تناول هذا الباب

---

(١) صاحبنامة ١٥١ (٢) صاحبنامة ٢٩ (٣) صاحبنامة ٤٩

عالم صيني قديما اسمه يا دوسيشو حوالى سنة ١٠٥١ فوضع
فى ذلك كتابه « كودان كوتى بيلك » على رواج الموضوع أوصى
(Ohsson) فى الجزء الثانى من كتابه عن المغول صفحة ٧٠
كما أن أدباء الفرس وكتابهم لم يغفلوه أيضا أن يخوضوا فى
هذا الموضوع ومنهم ابن المقفع فى كتابه خداينامه وظفرنامه ،
وكتابه عن سياسة الملك وسلاطينه والوزراء الذى سماه
أدب السلطنة والوزارة وهكذا أخذ هذا النوع يجرى مع
الأقلام حتى بلغ حد الكمال لعهد الوزير الأكبر نظام الملك الطوسى
فى كتابه له أطلق عليه اسم « سياستنامه » وأعقبه فى
أسلوبه المرحوم الغزالى بكتابه مرآة الملوك على رواية ابن
خلكان ثم فريد الدين العطار فى كتابه منطق الطير . أما
كتاب سراج الملوك فقد ظهر فى زمن السلجوقيين وضعه
ابن أبى زند كاوالطرطوشى . وقد خاصه العرب والتتار
أيضا فى الكتابة عن السياسة برسائل وضعوها فى
أصول الحكم .

وإذن فالسعدي لم يكن من المبتكرين في هذا المقام وإذا كان قد سار على منوالهم فإن مؤلفاته تمتاز بالدقة وحسن الأسلوب.

ولقد كان السعدي ملكيا يقول أن جسم الرعية يجب أن يكون له رأس من الملوك والا فسد نظامه. ولذلك أن تولى الحكم عبأ ثقيل يلقى على كاهل الحاكمين ولذلك اهتم السعدي أن يلم بالصفات التي تؤهلهم للقيام به.

ولهذا يقول السعدي: إن تربية الملوك من صغرهم يجب أن تكون على أسلوب أخشن من الأسلوب المتبع في تربية الرعية لأن الملك يجب أن يكون مثلا لمن يحكمهم حتى طلب السعدي أن يتعدى حدود اللهو إذا أراد أن تتعدى الرعية حدودها وإن الملوك إذا أشربت نفوسهم الشرف فمن البعيد أن تتجه إلى فعل الخيرات والسعدي يشبه الملك الشرير بالذئب حتى قال: كيف يولي

على الغنم ذئب »(١) ولذلك نبه السعدى الملوك دائما بأن يصلوا الليل فى معاقرة بنت الحانه وفى أيديهم زمام حكم الناس »(٢) وأنه يقتصد واخ شهوتى البطن والفرج أيضا قائلا : أيها الحكام إذا أردتم أن يصلح مقامكم فلا تضعوا أنفسكم لحكم الهوى لأنه يؤثر فيه مهما خلصت نواياكم . (٣)

وبعد أن ذكر السعدى تلك الصفات الخاصة بنفوس الملوك تناول غيرها مما يرطهم مباشرة برعاياهم فجعل فى رأسها العدل لأنه أساس الملك وقد رأى أن الغضب والحدة قد يفسدان عدل الملوك فأوصاهم بالحلم لأنه من صفات الله .

وربما كانت خير وصية ذكرها لهم هى الرحمة ، وأخذ الناس بالرفق واللين . (٤)

---

(١) جلستان ٤١ (٢) جلستان ٧ - ٩٠ (٣) بوستان ٥٠ (٤) بوستان ٢٢

وبعد أن انتهى من ذلك وضع لنا القواعد الهامة التي رآها ضرورية للحكم وهي أربعة منها ما هو خاص بالملوك ومنها ما هو خاص بالرعية ومنها ما يتعلق بالحكومات وأعدائها وأخيرا بالله.

أما الملوك فهم في نظره رعاة يجب أن يتنبهوا لأن الحكام إذا أغرقوا في النوم حرمت أجفانهم رعاياهم لذة الغمض أما إذا سهروا فإنهم تنام آمنة قريرة العين (١) ومع ذلك فإن للملوك النائمين الوقت الذي يفكرون عنده في حماية رعاياهم حتى ينشطوا ويقبلوا على العمل مع ما هنالك من تضامنهم جميعا. (٢)

أما بالنسبة للرعية فيما يلي لا تهتم لعيوب حكامها الخاصة إنما تهتم للسبل التي يتبعونها في حكمها: «كن منجما أو بحرا فيلسوفا بالفضيلة فإنه شعبك إذا قاسى فلسفة تفيده وعلمك هذه شيئا ولكنه معه حليما فإنه يغفر

---

(١) صاحبنامة ٩ (٢) بستان ١٢

لطرف عما يكونه نيلك من النقائص (١)

على أنه من بين الرعية فريقاً أولى بالحماية وهو فريق الضعفاء والصغار والمساكين واليتامى فليكن الملك لينا طيبا مع المساكين وليكن بعيدا عن القسوة على الصغار والأطفال كما هشم المطرقة بالسندان (٢) وليكن صديقا فقراء أمته لأنه جارهم (٣) وليعذر شكوى اليتامى التى تخرج من أفئدتهم المعذبة لأنه السنين التى يقطع اليد حسامه تنزاح فى لحظة واحدة على أثر لفتة من لفتاتهم (٤)

وليس يكفى للملوك أن يكونوا كذلك إذا تركوا أمر هؤلاء إلى غيرهم مهما بلغوا من التجربة ولكنهم مع ذلك لا يمكنهم أن يوزعوا أحكامهم العادلة بين الناس إلا بمعونة حواسهم بطاقتهم لا فظ آلة لا تكون أمينة ولا مخلصة إذا صرت من رعايتهم: «أكرم دائما خدامك الأقدمين يكافئوا

---

(١) صاحبنامة ١٨٧ (٢) صاحبنامة ٨٥ (٣) صاحبنامة ١٠٧
(٤) بستان ٢٤٠

في حبك ويخلصوا لك ، وإذا فعدت بهم السيء فليكن لهم نصيب من إحسانك (١)

أما رجال القلم والسيف وأهل المشورة من العلماء فلا شائبة في أنهم أولى الناس بالرعاية وهم عماد الملك والحكم بل أن حمايتهم يجب أيضا أن تمتد إلى ذرياتهم من بعدهم (٢)

ورجال السيف على وجه خاص يجب أن تكون العناية بهم أشد فلا تؤخر مرتباتهم لأنه كيف يطلب الملك من الجند ، وهو لديه فمع له أجره ولا يحسن غذاءه ، أنه يجود في ميدان القتال بحياته (٣)

وعلى كل حال يجب أن يحسن الملوك اختيار النائبين عنهم في الحكم على الأقاليم ويجب أن يكونوا من الأغنياء (٤) حتى لا تمتد أيديهم إلى مصالح الناس .

أما الوزراء فيجب أن يكونوا من يخافونه لا لأنه

---

(١) بستانه ٥٠ (٢) بستانه ٥٢ (٣) بستانه ٧٢ (٤) بستانه ٧١

للوزير الجدير بحب ملبيه هو الذى يخشى الله أكثر مما يخشاه

أما ما يتعلق بالله فقد سبق ذكره فى خلال القواعد الثلاثة السالفة حيث ذكر السعدى ضرورة احترام الملوك لحدود الله وأخيرا حيث تعرض إلى ذلك بالنسبة للوزراء ولقد رجع بعد هذا إلى تناول بعض الصفات الرئيسية التى يجب أن تتوافر فى الملوك حتى يعتدل حكمهم، ومن ذلك عنايتهم بنظام الشكاوى ودقتهم فى ضبطها وكذلك بعدالنظر فى كل شئ حتى لا يندموا على فوات الفرص وفى ذلك يقول السعدى إذا أردت ألا تندم فأعد نفسك للحرب وأنت فى زمن السلم لأنه تقوية الجسور لا تنفع عند اندفاع التيار، وأول شرط من شروط بعد النظر هو عدم الأخذ بالرأى الذى تومئ به سرعة الخاطر لأنه رأى لم يتمحص وكذلك من يندفع إلى السيف بقوة يندم على الجرح الذى يصيبه (٢)

---

(١) بشاوه ٥١

(٢) جلستاوه ٥٥

وليعلم الملوك أنه الحذر وحده غير كاف ما لم يرتكز إلى قوة فالحذر بغيرها مجرد خدعة ، والقوة بدونها عبودية (١) ولهو

ومن آلات القوة أيضا المال لأنه لا يكلف الملوك عناء (٢) والتحالف لأنه قوة أيضا والتفريق حتى يقول لك :- دقة رأس الثعبان بيد عدوك فإذا قهرته انتصرت على الثعبان وإذا انهزم اكتفيت أنت شر هذا العدو . ولا تخشى أنه تطرده كل سبيل للوصول إلى هدفه الغاية ولو سبيل الكذب لأنه خير منه الحقيقة الضارة (٣)

نعم إن سياسة الملك هي أسمى مرام الملوك الذين يريدون أن يأخذوا بأيدي شعوبهم ليصلوا بهم إلى بحبوحة الطمأنينة والرفاهية والسلام والسعادة .

وليعلم الملوك أنه لا خير عندهم الغاية تبرر

---

١) جلستانه ٢٢١
٢) ،، ،، ٢١٤
٣) ،، ،، ٢٥

آخر سه نفس رعايا هم فليحذروا كبيرها وليس ذلك بالأمر الهين اليسير.

ولقد ذكرنا بعض مزايا الملوك التي توصلهم إلى بلوغ هذه الغاية على وجه عام، والآن نعود إلى الخط السوي بشيء من الإسهاب.

وقصارى ما يتمناه الرعية في السياسة الداخلية هو الدقة في توقيع العقوبة على المسيء ومكافأة جميل المحسن لأنه الملك ليس إلا هاديا للشعب ولا تقوم هذه الوظيفة إلا بالعدل الحازم

وقلنا إنه ليس الملك غاية أو موجبا في بعض خدم وجب الملك لتوافي في عزائمهم (١) وكذلك ليس له أن يسلط عليهم غضبه لأنه غضب الملك على شعبه لا يصح أن يتجاوز غضب الأب على أبنائه (٢)

---

١) بقاءه ؟؟

٢) " " ؟؟

ولا بأس من عفو الملوك وهم أقدر عليه ولكن لا محل للعفو عن المجرم المسيء لأنه يشجعه على المضي في طريق الشرور التي ألفها إليه ، وفي ذلك ما فيه من الخطر على غيره من أفراد الشعب الآمنين فمثل هذا يجب ألا تأخذ الملك في رحمة لأنه الذئب الذي يأكل الغنم لا رحمة له عند الراعي (١)

ولكن إذا ترك هذا الأثيم خلفا من بعده فليحسن الملك إلى هذا الخلف وليغمره بما يكفل له العيش ، لأنه إنما نال إكراما له مع ذويه في العقوبة ، وهي لا شك أنه تتعدى الذين استوجبوا (٢) وقد وقعر الملك على هذا الأساس لأنه طريقه الانتقام (٣)

على أنه مجازاة الفاضلين يجب أن تكون بعد

---

(١) بستان ١٤
(٢) " ٢٢
(٣) " ١٨

تحقيقه وقسوته حتى لا يؤخذ البريء بغير ذنب (١)

بمثل هذا العدل القائم على الحزم والرحمة يأمن الملك غوائل الشرور في داخل ملكه

أما الحاكم المستبد الذي يفعل ما تدفعه إليه أهواؤه المتقلبة فلسنا نرى السعادة بجناحيها على ملكه (٢) وإذا أراد الله إهلاك قرية أمر عليها المستبد الطاغية من الحكام (٣) على أن الملك هو الملاذ الأخير لأمته فإذا كان هو باغيا فلمن تشكو وعند من تحتمي (٤)

وقد يصل الاستبداد عند الملك إلى حد الإسراف في دم شعبه وسفكه ومثل هذا الملك من العدل قتله والتخلص منه لأنه ليس إلا ذئب رعيته (٥)

ولقد كان السعدي يتساءل لماذا يوغل الملك في إرهاق رعاياهم وفي محاربة جيرانهم بقصد الفتح وهو يقول

---

(١) بستان ٢٧ (٢) بستان ١٨ (٣) بستان ٤١ (٤) صاحبة ٨٥ (٥) صاحبة ٥٠

« إنك مرحبا استلأت يدك من ملك الدنيا فلم تلمس رأسك السماء إلا وعليك تاج من استبدادك » (١)

إنني أشهد الله باسم الإنسانية أنه كل ملك الدنيا يكون غالي الثمن لو أنه أريق في سبيل الوصول عليه نقطة دم واحدة (٢)

على أن المستبد يعيش عيشة مضطربة غير آمن على نفسه لأن الناس اعتادوا دائما أن يقتلوا المقرب خوفا من شره (٣) ثم إن الموت قريبا أو بعيدا سوف يضع حدا لرهبة المستبد فلماذا يترك من بعده أثرا سيئا يتنقل في السنين (٤)

وهكذا لا يكون على الملك إذا دخل ملكه بعد ذلك إلا أن ينشر في ربوعه نور الهداية والعلم بالإصلاح المستمر فيكثر من دور التعليم والتنافس في الصناعة ويحمي التجار

---

(١) صاحبنامه ٢٧ (٢) » ٢٥ (٣) بستانه ٢٥
(٤) » ٤٦

والضياع ويحول بينهم وبينه الاضطرار فتمنع موارد الثروة ويعم الرخاء

أما أعداء الملك الخارجون فمنهم من يكون أحيانا مقيما فيه وهو يعمل في الظلام لتفكيك عراه فمثل هذا يجب أن يقضى وأن يكون نفيه إلى نفس بلده حتى لا يفعل في غيره مثل ما كان يفعل في نفسه(١)

أما العدو الخارجي فيجب أولا التلطف به والسعي إلى تهدئته والصلح أخيرا معه لأن الموقف يستدعي خداعا وسرعة . ولا غضاضة في النزول قليلا لأنه اليد التي لا يمكنه عضها لا عيب في تقبيلها . أما إذا لم يفلح كل ذلك وجب مقابلة الشر بالشر فالكلمة عندئذ للسيف . (٢)

وإذا ما ظفر الملك بعدوه فلا يشفه عليه لأنه

---

(١) بستانه ٢٠ (٢) جلستانه ٢١٥

لو تمكنه من مارحه وهو في منعفه لو يتظاهر بالخضوع والحب
إلا منتظرا الفرصة التي ينقلب عليه فيها.

ولقد فكر السعدي بعد ذلك فيما يسديه للملوك من النصح ليخشوا ويتقوا وليس عليهم رقيب يحاسبهم على ما يرتكبونه مع رعاياهم ويسرفونه في ظلمهم فلم يجد غير سبيل الآخرة سبيلا يسلكه معهم ولذلك أخذ يرجع بهم الى حقيقة موقفهم من أمرهم والى الغاية من هذه الحياة الباطلة والى ما هو معدلهم عند الله في اليوم الآخر من الحساب وهكذا يقول:

" أي نفع تجنيه من وراء محاربة العالم وأنت بعد أن تخضعه بالسيف تضطر الى تركه بالموت "(١)

" إياك أن تملوه كبير أمل على الحياة فكم تقلب الزمان فأخذ ينقل التيجان بين الرؤوس "(٢)

E.A.

(١) بستان ٤٠

(٢) صاحبنامه ١٢

«ومع ذلك فهذه الدنيا كانت لغيرك من قبل وستكون لغيرك من بعد (١) ثم إننا جميعا سيدركنا الموت فإذا أحسنت فليس لهذا لأن الإحسان مطلوب لذاته فحسب ولكن لأنك سوف تحاسب الله عليه (٢) فاخشه الله إذن لأنه يعلم ما في الصدور (٣) على أن الناس ليخشوه دائما سوف لا يخشى الله (٤) ثم إن الملك الذي يعمل لحماية رعيته راع أجره إله في السماء (٥)

---

(١) صاحبنامة ٧ (٢) صاحبنامة ٢٢ (٣) جلستانه ٢١٦
(٤) بستانه ١٨ (٥) صاحبنامة ٢٩

نظرة عامة على المجتمع (١٢٥)

سعادة المجتمع في سلامة النفوس وطهارة الأخلاق (١٢٥) - أصل السعادة التفاؤل (١٢٥) - أساس المجتمع الحرية والشرف. (١٢٦)

نظرة عامة على المجتمع

لا يرى السعدي أن سلطة الحكم هي الحد الذي تقف عنده الآمال لأنه السعادة والسكون لأن عبد الله الأفي مملكة الدراويش .

والسعدي يقصد من ذلك طهارة النفوس حتى تترفع الى احتقار زخارف الحياة التي هي سبب الآلام البشرية فتكون أقرب الى فهم معنى السعادة .

وإذا كان ذكر مرضا مملكة الدراويش فليس ذلك لأنه صوفي . وقد رأينا وسنرى أن لا يجد مع تطرف المتصوفين واقفا عند حدود الدين وأنه لا يأخذ من التصوف إلا الغرض منه وهي سلامة النفوس وطهارة الأخلاق .

إن السعدي رجل حقيقة وهو من المتفائلين على عكس أهل الصوفية الذين يرون أول خطوة في سبيل مذهبهم هي فناء الإنسان ولهذا نراه يعني بالمجتمع ويعنى بما يكفل له الحياة الطيبة والسعادة الحقيقية ولذلك كان دائما وعلى الأخص في عهد الشباب المدافع الذي اندفع لإصلاح في بلاده .

وأخذت تفتك فيها بعيدا عن الملوك نفوراً من انغماسهم في تيار اللهو والتنعم على رعاياهم حتى أنه أخذ ينصح لهم في رفق وليه ويوضح له طريقه عملي يرمي به إلى تقويم المعوج من الأخلاق والرجوع بها الى الحد المعتدل فيعرف الفرد كيف يسعد. وأقاصيصه في البستان والجلستان كلها تحوم حول ذلك وإن كانت تظهر على وجه عام لتبيين المظلوم بالقوى والفقر بالغنى والشرف بالمخاتلة وهذا مثل من ذلك :-

« سجن بعض الملوك عندما اعتلى العرش كل وزراء سلفه، خشية أن يتآمروا عليه ولكنه هذا أشد مظاهر الاستبداد. »(١)

وكذلك يصف في بعض قصصه فرار أحد الجنود إلى صف العدو لتأخير مرتبه.

وقصارى القول أنه يقصد دائما أن يحيا المجتمع حياة قائمة على أساس الحرية والشرف.

---

(١) جلستان ٤٢

السعادة والأخلاق (١٤٧)

الخير والشر (١٤٧) ـ رأيه في الحياة (١٤٨) ـ النفس مستقلة عما عداها (١٤٩) ـ النفس تحت سيطرة العقل والقلب (١٢٩) ـ العلم والجهل (١٥٠) ـ الاستقلال الشخصي (١٦١) ـ القناعة والحرص (١٠٨) ـ النفس موتسطة بين عداها (١٤٢) ـ الطبيعة (١٤٣) ـ وسائل الطبيعة (١٤٥) ـ العفو (١٦٦) ـ الذكرى الحسنة (١٤٦) ملخص ما قيل ١٤٧

السعادة والأخلاق

تكلم السعدي عن الأخلاق في كثير من مواضع كتابيه البستان والگلستان ومع ذلك فقد أفرد لهذا الباب كتابا خاصا هو البندنامة أو كريما (أي الإرشاد) الذي اعترضه كثير على نسبته إليه وردونا عليهم بشأنه حينما تناولنا مؤلفاته

والسعدي كغيره من الفلاسفة يقول بأن المرء يولد وفي نفسه بذرة الخير والشر منذ ولادته (١) وهو كذلك كثير التأمل في هذه الحياة كثير الشكوى من الزمن وكأنه في ذلك يطل قصة حزن الشاعر الذي لما بلغ ... وهو يشكو ويتوجع من ذلك ويقول إلى متى أسأل الخالق وأسأل الطبيعة وهما يضنان علي أذني بكلمة واحدة تشفيني من داء الجهل الذي امتلكني وأنا في وحدتي

---

(١) صاحبنامة ١

سوى الخواطر عليل لا أعرف شيئاً من أسرار هذه
الحياة . وكثيراً ما حاولت أن أحطم القيود التي
تربطني بها فأنتني التوفيق . فيا أيها الموت متى
يجيء اليوم الذي أتظلل عنده بجناحيك .

نعم إن هذه الحياة مهما كانت لها من الظواهر
الساحرة الخلابة فإنها تدعو إلى السآمة والملل
حتى ليضل الناس في أسرارها ويتشككوا في
الغاية منها . كفوستا الذي مر ذكره وما فوستا
الدموية لكثير من الفلاسفة مثل جوته الذي
وصفه ومثل غيره . ولكن السعيد كان غير ذلك
كان على علم تام بالحياة ومصيرها وما بعدها .
كان يعلم أن فطرة تسير منها الخليقة إلى
الحضرة وطبيعة تسير بها إلى الدار الباقية .
ولكنها مطية غير ذلول تحتاج في سياستها إلى

- بإضافة خاصة تختلف شدة و لينا كاللجام الذي ترخيه وتشده عند الحاجة .

ومن هنا نعلم موقف السعدي من العناد والمشقة في القواعد التي حاول أن يضعها للناس حتى يقبلوا هذا الطريق المحفوف جانباه بالأشواك آمنين ولذلك قسمها إلى نوعين : ما يرجع إلى الإنسان ونفسه وما يرجع إليه مرتبطة مع غيرها من نفوس الناس .

- بالنسبة للنفس مستقلة عما عداها -

نظر السعدي إلى الإنسان نظرة صحيحة توجد نفسه بين قوتين متدافعتين لا تدري أيهما تتبع وهي مع ذلك تحس رحمة من تتقلب منهما على الأخرى . العقل والقلب . ولعله يقصد بالعقل الإدراك وبالقلب الشعور وهذان الطرفان مالم يتهذبا ربما كانا وبالاً على تلك النفس التي كتب لها أن تقف وسطا بينهما لأن الإدراك الجاهلة عرضة للتطرف والاستبداد ولأن الشعور المطلق عرضة للغلظة ومسارة الشهوات

وهما على كل حال المتسلطان بحكم الطبيعة البشرية على حياة الإنسان ولذلك رأى السعدى أنه يضع لها ما يعصمها عن الزلل ويوجههما إلى السبيل الطيب النافع المؤدى إلى السعادة (١).

وكذلك كان أول ما يلفت النظر إليه فى هذا المقام العلم لأنه أول أساس مال الإنسان. لولده الجهل حقيقة نفسه وحقيقة الحياة وحقيقة الله ولظل فيما لا فى غرائزه. فالعلم عنده أول مرحلة يجب على الإنسان أن يقطعها وأول لقطة يجب أن يعنى بها حيث كانت. لأنه متى حصل عليها حصل على الكمال النفسانى الذى يصرفه إلى عمل الخير فيكتب له النعيم.

ولا حاجة بعد أن تكلم عن العلم على الوجه الذى سلف أن يذكر شيئا أيضا عن الجهل وما يجر من شرور

---

(١) صاحبنامة ١١٨

وكانت لذة ذلك مفهوم بالاستنتاج العكسي ومع ذلك فإنه يحذر الجاهلية من سوء المصير فيقول: "إن النار كانت للجاهلية لذة حياة الجاهل لم يكونوا لها نصيب من حسن الختام" وهكذا يحض على العلم وطلبه من طريق عملي ما دام أنه إغفال يقود الإنسان إلى مثل هذه الخاتمة.

ويدعو بعد ذلك إلى استكمال النمو النفساني من طريق الاستقلال الشخصي بأن يزهد المرء في زخرف الحياة وألا يمد عينيه إلى ما في أيدي الناس من طريق الرضى بالحظ المقسوم والقناعة بالقدر اللازم لقوام النفس والبعد عن الاستدانة لأنه الدين قيد من حديد لا يتفق مع ذلك الاستقلال.

ولكي يواجه الفقراء من طريق مقنع فيحملهم على اتباع ما سلف، يذكر لهم ما في الفقر من خلود النفس القانعة إلى الهدوء والسكون لأنه الجرى وراء جمع الثروة

أدعى ما يكون الى الاضطرابات وزعزعة تلك الراحة (١) ومع ذلك فإنه الانصراف الى هذا السبيل يقوى في المرء ملكة الحرص على المال فيحببه عن الناس وعن نفسه أيضا وهو غاية ما يكون من الجهل وقصر النظر (٢)

وأما الذين حسن لهم الحظ وسخت عليهم فيوسع الرزق فأمنوا شر الحاجة فإنه أيضا يخدرهم عن الاعتبار بما في أيديهم من النعمة ويخيل إليهم أنه يحتقر وشاؤه بقوا دائما على أنفسهم حتى لا تفلت أكبادهم فينصرفوا بالحياة الفانية عن الحياة الباقية .

هكذا يقف مع الناعمين موقف المرشد الحكيم فيرجعهم الى سبيل الحكم على أنفسهم بأنفسهم قبل أن يوقعهم الحظ الذي ابتسم لهم تحت حكم غيرهم وقد يكون قاسيا (٣) لأن الحظوظ متقلبة غير مستقرة ولأن تلك النعمة قد تزول

---

(١) صاحبنامة ٩٧ (٢) صاحبنامة ٢٢ (٣) صاحبنامة ٥١

فيتطهره . ولذلك ينصحهم الذين يتخذوا مكانا عاليا فخير للإنسان أن يمشي على قدميه من أن يمتطي فوقها وهو على ظهر فرس إذا جمحت به وقت عنقه (١)

ومع ذلك فإن القناعة - حتى في حالة يسر الإنسان واجبة لأنها تبعد به عن فوائك الأمراض والأسقام وتحقق له نعمة الصحة التي هي من خير كنوز الحياة (٢) على أن الفقير الذي لا يعرف كيف يقنع بما في يده إنما يجني على نفسه فهو في الحقيقة ليس إلا جلادها (٣)

- بالنسبة للنفس مرتبطة بمن عداها

لا يرضى السعدي هنا بأكثر من الطيبة فيقول أنظر خير قواعد الأخلاق الكريمة لأنها كالشمس ترتجف ثم تصعد إلى السماء (٤) والطيبة لا تنشأ عن حساب أو تفكير كذلك فيضاء تنبعث بدفء به الإنسان إلى إنارة بغيره

---

(١) صاحبنامة ١٢٥ (٢) صاحبنامة ٦١

(٣) بندنامة ١١ (٤) بستان ١٥

منه الناس ومعونتهم في أوقات شدتهم. وما أسمى نفسا تغمرها رحمة الله نحو آلام الجنس البشري.

وإذا كانت الطبيعة قد منحت الإنسان زمامه في يد القلب لا يملكه الإنسان ولكنه في إمكانه أن يوجه خواطره إلى الله فيخلص قلبه به والعذاب في هذه الحياة عام لكل إنسان منه نصيب ولو بقي حتى أن العاقل ليتعذب لغيره كما يتعذب لنفسه وكما يتعذب الصحيح وهو على مقربة من سرير المريض الذي إلى جانبه (١)

ولا شك أن الإنسان لا تطيب نفسه نحو المتألمين إلا إذا قاسى هو أيضاً. ولكنه كيف لا نتفكر في ما يعاني المريض من الألم وهو على سريره ليس إلى جانبه أحد يخفف ما به ولو بقليل الكلام. نعم إن ليل مثل هذا المريض المنقطع عنه الناس وعنه هنوهم لليل طويل

---

(١) بستان ٤٤

انعقدت فوق سمائه سحب مدلهمة من الأحزان والهموم ال
وكم ضمت جوانح الليل من قوم بائسين ناموا جياعا لا يشعرهم
أحد . وأنفس ذاقت من الآلام لم تقصه في سبيلها دمعة .

وربما كانت الطبيعة واهبة للإنسان سوا الإنسان على
أخيه الإنسان شفقة به فحسب كما سبق ولكنه ليكون له مزا
دينية في عفو غيره ربما كانت في استرداده فائدة تعود عليه
لأن الطبيب مع الناس يدفعهم إلى أن يكونوا طبيبين معه حتى
نسج السعدي على منوال ما جاء في الإنجيل فقال: لا تقابل
سوك بما تكره نفسك أن يعاملك به . والضرر الذي لا
ترضاه لنفسك كيف ترضاه لغيرك من الناس.

ومن وسائل الطبيعة أن يتجه الإنسان إلى العفو
عن المسيئين لأنه الذي لا يغفر غيره سقط لا يتنظر
عفو الناس عنه إذا ذل (٢)

---

(١) بستان ص ٢٧٤ (٢) جلستان ص ٤٦

ومن هذا ترى أن العفو في الحقيقة من صفات الإنسان
أن يؤدب لغيره لأنه الذي يعفو عنه تحته يشترط العفو
لتقدمه هم فوقه (١)

على أن الذي لا يعفو وهو قدير على العفو لكم
يتمنى في أيام محنته وهكذا من لم يكونه طبيبا مع أبيه
لم يكونه أبناؤه طبيبه معه (٢)

وليس للعفو حد حتى ولو كان من يطلبه منك
عدوا لك وهكذا يقول السعدي : ما غلب لي قوة أن
تشفي من عدوي وهو على سرير الموت لئلا إحياني نفسه الذة
وفوق ما سلف فإن [illegible] الكريم تكسب الإنسان
اعتبارا يبقى بعد موته [illegible] أن الزكي الحسنة
بعد فوت الإنسان هي نوع من الخلود وتعد كفجر

---

(١) حلستان ٤٥ ، (٢) حلستان ٦٥ (٣) حلستان ٩١
(٤) صاحبنامة ٢٩

للحياة الأخرى المقبلة حتى أن السعدي يقول فيمن
لم يوفه إلى حقه النعمة : لقد دفنه الزمن ولكنه لم
تدفن ذكراه السيئة .(١)

ويمكنه أن يلخص كل ما سلف في أن على
الإنسان أن يستكمل نفسه بطريقه العلم والفضيلة
والحرية لأنها السبيل الوحيد إلى مكارم الأخلاق والغاية
المعنية يجب أن تكون غاية كل إنسان سيما وأنه يوم
يبعث محاسب عما فرط في حياته حيث يسأل يومئذ ماذا
الذي قدمت يداك لا سمح هو أبوك (٢)

وفي هذا المقام ربما لنا عقيدة السعدي نحو
القضاء والقدر لأنه جاء في بعض كلامه «ولماذا تتعب
على الأقدار بل لأنه أن تتعب على نفسك وهو ذلك
فيأتي باب خاص برأيه بالنسبة للدين والتصوف

---

(١) صاحبنامة ١٧٢ (٢) جلستان ٨١

عقيدة السعدى

(١٤٨)

بالنسبة لله (١٤٨) — صيامه بالطبيعة (١٤٨) — نظرته فى الكون (١٤٩) بالنسبة للقضاء والقدر (١٥٠) — بالنسبة للتصوف (١٥١) — رأى ابن خلدون فى بداءة التصوف (١٥٢) — تطور المذهب الصوفى (١٥٥) — الخلافات الجوهرية بين السهروردى والغزالى (١٥٦) — ماهية التصوف وتعريفه للغزالى (١٥٧) — مناقشة الغزالى فى تعريفه (١٥٨) — الخلاف بين رجال الدين والتصوف (١٥٩) منزلة السعدى فى التصوف (١٥٩) — خواطره فى التصوف (١٦٠) — التصوف عنده قنطرة يعبر بها إلى مذهبه فى الأخلاق [١٦١] — ميزته عن العطار (١٦٤) — خلاصة الكلام فى مذهبه الصوفى (١٦٤).

عقيدة السعدي

بالنسبة لله

كان السعدي سنيا يحترم الكتاب والسنة ويعمل بهما وهو يقول ما دام العالم مستقل تتعاقب عليه التيارات وتتلاعب فيه الخلائق أثر بعضها فهو إذن عالم خالد يحكم عليه سيد خالد هو الله سبحانه وتعالى الذي لا شك في وجوده والخليقة أثر من آثاره: «إني أتحدى من يأتي لي بورقة واحدة من أوراق الأشجار ليس عليها ما يثبت وجود الله (١)»

ولقد كان السعدي ذا هيام بالطبيعة يمثلها بأعينه لعله من طريق الإعجاب بجزئها ولكنه من طريق تكشف مكنونه كما أنه في ذلك كبرنار ديبه دي سان بيير في أبحاثه عنها متأملها تأمل العالم الصبور فإذا صادفته

---

(١) صاحبنامة ١٩٥

حشرة تتبعها في وقوفها وحركتها وطيرانها وهبوطها وامتصاصها أجنحتها وأرجلها وكل دقيقة من دقائقه جزء حتى لقد قال أنه الله وضع وسائل حياة الطيور في أجنحتها ليمكنها أن تحصل على غذائها ثم يتدرج من ذلك إلى ما هو أرقى منها فيقول للإنسان :-

« انظر مبلغ نعم الله عليك إنك لم تكن شيئاً مذكوراً خفية ليس لها إدراك ولا عقل وكان الله منحك إياها ومنحك الروح والشعور والجمال والنظر والحرص والتفكير والذكاء . ثم خلقك فوالك بشراً سوياً جميل الصورة »(١)

وبعد ذلك ينتقل إلى تسخير الكون للإنسان فيقول : « ولقد سخر لك الشمس والقمر سراجيه وهاجيه في النهار والليل وأرسل الرياح والأمطار

---

(١) جلستاته ٨٠ ،

بو نبات بذورك في الأرض وجعل لك عنه النحل عسلا
حلو الطعم وسلطك على الأزهار تمتص عرف الذكي
وعلى الأشجار تقطف ثمرها الشهي وعلى المناجم لتستخرج
منه بطونها ماهوته من مختلف الخيرات والكنوز (١)
وهكذا كان استقراءه للطبيعة سببا أدى
لتثبيت إيمانه بوجود الله.

بالنسبة للقضاء والقدر

لقد سمعه الله رضاعة السعدي قول: "لماذا
يعتب على الأقدار بدلا من أن تعتب على نفسك"
وأمكنا عن غرضه من ذلك. وهل في هذه الجملة الوجيزة
ما يكفي لمعرفة رأيه في القضاء والقدر. ولكنه السعدي
على ما يظهر جبري يعتقد كل الاعتقاد بأن: ما شاء الله
بيده مفاتيح الحظ والله وحده القدير على كل شيء (٢)

---

(١) بستان ٢٢٢

(٢) بستان ٢٢٦

عالم يكتبه لنا من الأزل ليحصل عليه وما كتبه لنا فسيصيبنا أينما كنا(١) وهكذا سعينا خلف رزقه يومنا أو لم نسع يأتنا الله به فلم نجهد أنفسنا . وله غير ذلك شيء كثير منه :

« ليس يظهر الإنسان أنه بالغ غايته متى سلك سبيلا ولكنه الله وحده هو الذي يوجب البر ويبلغه إياها (٢) »

« وإن العاقل رغما منه يفقد حرصه يسعى عبثا للتخلص منه ساعة الخطر كما أن المجنون بالرغم منه صنيعه قد ينجو منها (٣) »

« وإذن فما دام أن كل إنسان احتراس غير مجد وما دام أن الفوز الذي لم يقسم له يتحقق مهما بذل فيه من الجهد (٤) فمن الجنون إذن أن نحارب الأقدار . والذي يسير بكل هذه الخواطر لا يخامره شك في

---

(١) جلستان ٢٤٤ (٢) بستان ١٢٨ (٣) بستان ٧٩ (٤) قصيدة فارسية طبع كلكتا ص ٢٢ .

اعتقاد السعدى بالقضاء والقدر اعتقاد أعمى مطلقا ولكنه مع ذلك يعود فيقول :

« و إذا كانه الأمر كذلك فلم تشكو ولم لا ترضى بالواقع وتعتصم بالتفاؤل . فاعتقد أيها الإنسانه أنك سعيد مهما كانه منه أمرك سيما وأنت ليس فى يدك أنه تجعل النحس سعدا (١) ولقد خلقك الله طاهرا لتحيا حياة طاهرة (٢) على أنك مهما جمعت فضلات الآنية فإنك لسه تعود إلى مثل ما كانت عليه ولكنه ما دامت يداك المرهلتان تعصان للتنانه دلكتاهما فاجتهد فى إصلاحها كما إذا قدر لك أنه تقع فى هاوية فاسع إلى الخروج منها (٣) لذلك لو حيت ساعدك الله (٤) ثم منه يدرى أنه الله أراد أنه يبلوك بما تلاقيه منه المحنة والشدة وأنه ذلك منه بعض درجات الكمال فرفى

---

(١) صاحبناسة ١٢٢ (٢) بستانه ١٧ (٣) بستانه ٤٥ (٤) بستانه ٩٥

عملك واشكره على ما قسم لك فإنه يحبس نعمته عن القوم الكافرين (١). وقصارى القول: لا تعذب نفسك عبثا واقطع حبائل الرضى والفرح واعمل على أن تتقرب إليه وإن كنت تجهل ما سيكون من أمرك عنده.

ويظهر من هذا الجزء الأخير أنه السعدي رأى ما يكون للقضاء والقدر على عقول الناس من التأثير السيء لأنه قد يدعو إلى السخط والتشاؤم والجمود فأراد تدارك ذلك ببيان نظره أنه مع التسليم بالقضاء والقدر لا يعلم كل إنسان من أمر حظه الذي كتبته له الأقدار شيئا وقد يكون حظا سعيدا فلم يستسلم لليأس والتشاؤم سيما أن الله يحب القوم العاملين.

ومن هذا نرى السعدي أيضا يجعل العمل أحد مقومات هذا المذهب الذي كان مثار الخلاف في الإسلام

---

(١) سورة ٦٢ ٤

رسنا طويلا

بالنسبة للتصوف

إنه هذا التيار الصوفي بدأ ظهوره على رأي ابن خلدون في أول صدر الإسلام. قال:

"..... إنه طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف." (١)

وفي القرن الثاني [illegible] هذا المذهب باسم التصوف [illegible] أساس هذه التسمية تختص المتقين لون لبس الصوف

---

(١) مقدمة العلامة ابن خلدون ص ٥١٢

وكانت غايتهم أن يذروا نفوسهم لسلطانه الله بغير أن يتعرضوا إلى معرفة كنهه

ثم أخذ التصوف بعد ذلك يتقدم يوما فيوما وكثر مريدوه وللسه على أسلوب أوسع فما كان أساسه عندهم مجرد الخضوع لله فحسب بل أيضا الهيام به إلى حد الفناء فى ذاته تعالى وهذه الطريقة هى التى كانوا يطلقون عليها اسم «الرضى» انتقلت أخيرا إلى مذهب حلولى .

وللسه التصوف تأثيره على أثر ذلك تيارات مختلفة فبينما كان بعضهم يحاول أن يقف موقفا متوسطا بين آرائه الخاصة به وبين الحدود التى أوجبها الدين جاعلا غرضه تكريم الأخلاق والتعبد كان فريق آخر يتوسع فيه إلى أن جعل الذهول والانجذاب أساس طريقته .

ويروى أن بايزيد البسطامى هو صاحب هذه الطريقة حتى لقبوه بأبى الصوفية . وهو أول من له مقام جليل فى التاريخ

ولقد بلغ من أمر التصوف وشيوعه أنه انتقل من الصدور إلى السطور فوضع نفر من كبار المفكرين كتبا عديدة فيه.

ونحن نعلم ما قضاه السعدي من السنين الطويلة في كلية دار السلام عاكفا على الدرس وكان التصوف آخذا في الانتشار والذيوع بفضل أكبر زعمائه السهروردي. وهكذا كان لابد للسعدي أن يتأثر بتعاليمه وهو بعض أساتذته ولكنه لم يكن وحده المؤثر على نفس هذا الشاعر. وقد امتد على ربوع تلك الكلية وقتئذ ظل الإمام الغزالي رحمة الله عليه.

لهكذا كان منشأ تأثر السعدي بهذا المذهب ولكي نقف على نوع هذا التأثير عليه يجب أن نرجع ثانيا إلى مقدمة العلامة ابن خلدون في فلسفة المؤلفين

فقد ذكر الخلافات الجوهرية بين السهروردي والغزالي في تعاليمهما وقد قسم بعد ذلك طوائف هذا المذهب إلى أنواع

يرجع بعضها إلى أحوال خاصة بالتعبد وإقامة حدود الدين العامة. وبعضها خاص بما للتصوف وريادته من اللذة الروحية ولا سيما في حالات التجلي التي تعرض للمتصوفين وهو ما أفاضه فيه السهروردي في كتابه (عوارف المعارف) وقد أفاضه الإمام الغزالي في هذه الناحية أيضا في كتابه (الإحياء) وربما كان ما امتاز به هو محاولته وضع رأي وسط بين جدال الدين بقولهم أنهم طلاب عقل وتأمل وبين المتصوفين الذين يزعمون أن الله اختارهم وكشف الحجاب عنهم ولذلك يعرفون الحقائق وللغزالي محاولة لم تفلح ولم تفصل أكثر من إيقاظ المشاعر الثائرة وهكذا ما قدر ما أدخل الغزالي من الإصلاح على هذا المذهب على التوسع في علم الأخلاق مع أن علم الأخلاق ليس إلا وسيلة إلى التصوف الذي أهم أركانه إيجاد الصلة بين النفس وبين الله.

وربما كان من الواجب قبل كل شيء أن نلم بماهية التصوف وتعريفه. فالغزالي يعرفه بقوله «إنه: انتزاع النفس

من سلطانه الشهوة وتجريدها من ميولها الأنيية وغرائزها
القبيحة حتى إذا طهرت القلوب صح أن تكون مجالا لله »

ولكننا نرى هنا أن الغزالي لم يوفق إلى وضع هذا
التعريف وإنما استنبط من الغاية المقصودة من التصوف
وهو تعريف جامع غير مانع إذ من الجائز إطلاق اسم أن
ومن بغير تعريف .

وفي الواقع أن من الصعب الوصول على هذا
التعريف إلا من طريق الاستنباط كما فعل
الغزالي أو يقول بعد ذلك أن التصوف ليس مسألة من
مسائل التعليم وإنما هو حال انتقل إلى الشخص من
حيث أخلاقه كأنما يريد أن يقول أن التصوف لا يمكن فهمه
من طريق التعريف ولكن من طريق الشعور .

وكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن رجال الدين
يستمدون من الكتاب والسنة من طريق العقل أما المتصوفون
فلا يتصورون إلا لحكم ما تشعر لهم خيالاتهم وهكذا

يظهر أنه من المحكمة فهم التصوف من الطريقة النظرى ولكنه من الصعب تطبيقه إذا لم يمنح الله من يتعرضه إلى ذلك حالة الذهول والانجذاب. فالتصوف والحالة هذه يتطلب عند العامل به استعدادا خاصا حتى اضطر الغزالى أن يقول أنه تطهير القلب من كل ماعدا الله هو أول أركانه وأنه مفتاحه فى استغراق القلب فى الصلوات وأنه آخر مرتبة لم هو أنه يتلاشى الإنسان فى الله ومع ذلك فهو يرى أن هذه المرتبة ليست الطريقة هذا المذهب وأول ما يميز يجتازه المريد إليه.

ولكنه السعدى أبعد الناس عن مثل هذا الاتجاه ونحن نعلم مما كتب عن أخلاق المجتمع أنه كل تعاليمه فيما عملية فهو لا يسلم بإمكان الانفصال عن الأرض ولا بحالة التجلى التى كانت تطرأ على جلال الدين.

على أن للسعدى خواطر كثيرة يذهب كل من يقف عليها أنه من المتصوفين. ومن ذلك:

« إنه سنتون الحكمة تنفرد به الغايات البعيدة »
« إنني أراك أمام الشمس كأنني لم أكن » (١) ثم
« ماذا يهمني لو احترقت . لقد كنت بعيدا عن صوتها
ومع ذلك فلم أسلم من حريقها أيضا » (٢)
« ولذا فإنني أهيب أيها الموت أيها المواطن السماوي »
« وفي خيال رقيم يرفعون أيديهم ويحيون لأنه
باب التموجات السماوية ينفتح أمامهم فهم بمثل هذه
الحركات يطردون عنهم خيال الخطيئة » (٣)
« إنك لم تعرف نفسك حتى تقدس وجودك » (٤)
« ولقد أظلم عقلهم واضطربت نفوسهم وسدت آذانهم
عن صوت النصح » (٥)

وغير ذلك كثير متناثر في كتبه ولكنه لعله
بذلك كله أراد أن يذكرنا صورة من أحوال المتصوفين

---

(١) بتلر ١٦٢ (٢) بتلر ١٦٨ (٣) بتلر ١٦٧ (٤) بتلر ١٦٦
(٥) بتلر ١٥١ .

لأنه كان كما علمنا لا يسلم بحالة الذهول التي كانت
تطرأ على الرومي وعلى أمثاله من المتصوفين وهي التي
تعتبر أول خطوة مرتبة من مراتب التصوف وفي طليعته.

ولكنه كان يأخذ من التصوف ما كان يراه لازما لأمور
الأخلاق و- مادة الدارسين حتى أنه يمدح عند الصوفية
ما هم عليه من الصبر وسكون النفس وطهارة النية
والبعد عن الانتقام والنفاق

"هكذا لا تظهر جمال الرحمة الا بنظارة الند (١)
أما الصلوات الطويلة التي يقصد بها إلقاء الغبار
فانظر مفتاح هيزم" (٢)

إن السعدي ينظر إلى الأخلاق من وجهة نظر
الدينية والعملية معا أما بالنسبة للغاية البعيدة من
مذهب المتصوفة وهو عدم الاهتمام بأشكال العقائد

---

(١) بستان ص ٢٤٤

(٢) " ١٤٥

المختلفة ووحدة الخير والشر النظرية فإننا نراه سكت عنها وهو يهتم لهذه النسمة التي ينفرد بها جلال الدين ويأمر بحب النوع البشري الذي لا يأخذ به العطار (١) ولا يذهب كثيرا إلى احتقار المال كما هو شأن عامة المتصوفة.

وهكذا بينما يقول العطار أن عدم الحركة هو غاية الحياة الروحية نرى السعدي ينصح الناس بالانصراف إلى كل شيء إلا ذلك الذي نراه الذي لا يفهم له معنى ولا حكمة (٢).

وكذلك بينما العطار يشرح في قصيدته الكبرى ما يحير الصوفية من اللذة عند فنائه في الله نرى السعدي ينظر إلى الله في ذاته ولكنه باعتباره العامل الأول في نظام هذا الكون وهكذا لم يتقدمه

---

(١) منطق الطير ١٢٠

(٢) بوستان ٤٤

الصوفية إلا أنه يجعل لخواطره الأخلاقية من تجاربه الكثيرة قواما روحانيا . فالتصوف في نظره ليس بغاية وإنما واسطة لإصلاح أهل عصره . ولهذا يمجد فكرة التضحية ولا يفرضه الانتقام ولا من الكذب إذا كان ذلك يجر إلى حقيقة ونفع (١)

وقصارى القول أنه السعدي أميل إلى رأى الذين لا يشغلهم شاغل من الدين وحدوده غير معتبر تلك الحدود كغاية . وكله كمثل للحياة الاجتماعية حتى أنه يلوم من التصق بالفقاهة ذات الخالق فنصح بالنشاط والعمل من طريق الدين ويدعو الناس إلى التفقه لأنه العدة الجامعة الصالحة تحول بين الشرور وبين السيادة (٢) . وقائلا أيضا ما معنى هذا التصوف الذي يزعزع سعادتك . وما معنى هذا الشك الذي يساوره إليك

---

(١) جلستان ١

(٢) جلستان ٤ ٩

السعدي وفن الكتابة (١٦٥)

الوصف الاجمالي لطريقة الكتابة (١٦٥) - الأشخاص الذين جاء ذكرهم في التاريخ والذين ذكرهم السعدي (١٦٦) - الفكرة والصورة (١٦٧) - أساليب مختلفة (١٦٨) - المقابلة (١٧٠) - الاثبات والنفي (١٧١) - المحاورة بين الأشخاص (١٧١) - إجراء الحوار على ألسنة الاحياء والأموات (١٧٥) ، الأتاسيين (١٧٦).

«السمدى وفن الكتابة»

يكفى كما ذكرنا فيما سبق أن يقول دولتشاه أن السمدى هو أحد أنبياء الشعر الثلاثة

وفى الواقع أن السمدى كان رقيق الأسلوب حاضر الخاطر غزير المادة ينساق فى أدبه إلى الحكم الغوالى سواء بفطرته أو بما اكتسبه من ممارسة العلوم وملازمة العلماء وقد بنا الأدوار الطويلة التى كان فيها عجينة لخير قوالب التهذيب والتعليم.

وإن الشاعر الفارسى الذى ينظم باللغة العربية ويصوغ شعره فيها بأدق الأساليب وأرقها لا يمكن أن يصل إلى ذلك من باب السليقة كما عند بعض شعراء اللغة العربية لأنها أجنبى عنها ولابد أنه نظمه بالشعر فيها بعد أن قرأ فنه العروضى والبلاغة حتى أن مجازاتها واستعاراتها وما أخرجه قلم من شتى صور البيان فى اللغتين لأنظمه دليل على اطلاعه على هذه الأصول.

وإذا جئنا إلى الجلستاد والبوستاد وصاحبناة وغيرها لرأيناه يذكر في خلال كلماته كثيرا من الأسماء الدالة على كثرة البحث وسعة الاطلاع، مثل ما أخذه من القرآن والحديث بل والإنجيل كما يذكر الطبيب جالينوس والفلكي جوشيار (١) وحاتم الطائي (٢) والإمام علي (٣) وسنداس (٤) وعمر بن الليث (٥) وعمر بن عبد العزيز (٦) وهارون الرشيد (٧) والمأمون (٨) والمنصور الصالح (٩) وكما يذكر من الصوفية ذا النون (١٠) وعبد القادر الكيلاني (١١) وصدر الدين خواجه شيلي (١٢) ومعروف الكرخي (١٣) وجنيد (١٤) وبهلول (١٥) وبايزيد البسطامي (١٦) وكما يذكر من ملوك الفرس وأبطالهم فريدون (١٧) ورستم (١٨) وجمشيد (١٩)

---

(١) بستان ٥٦ (٢) بستان ١١٠ - ١١٤ الجلستان ١٥٥ و ١٦٥ و ١٧٠ و ١٧٤ و ١٧٥ و ١٧٦ و ١٧٧ (٣) بستان ١١٦ (٤) بستان ٩ (٥) جلستان ٢١ (٦) بستان ٧٠ (٧) جلستان ٨٠ و ٨٩ (٨) بستان ٦٥ (٩) بستان ٩٠ (١٠) بستان ١١٩ وجلستان ٨٢ (١١) جلستان ١٠٠ (١٢) جلستان ١٠٦ (١٣) بستان ١١١ وساحبنات ٩٩ (١٤) بستان ١٩٩ و ساحبنات ١٠٠ (١٥) بستان ١١٤ (١٦) بستان ١١٤ (١٧) بستان ٤٩ (١٨) جلستان ١٧٠ و ١٧٦ و بستان ٧٠ و ٧٦ و ٩٤ (١٩) جلستان ٤٥ و بستان ٧١ و ٤٣ (٢٠) جلستان ٤٦ و بستان ٤٨

رداريوس (١) وداستانه (٢) وبهرام چوبين (٣) وانوشروانه (٤) وازدشيربابكانه (٥) وغيرهم. بل أنه ذكر أيضا مجنونه وليلى (٦) وكل هذا دليل على أنه قرأ كثيرا ولم يفته باب من أبواب الفقه والأدب والتاريخ والشعر وغيرها إلا اغترف منه. فرجل هذا مجهوده لابد أنه قرأ في علم المعاني والبيان على ما ذكرناه حتى وصل إلى مقام هؤلاء الأنبياء الثلاثة.

ولقد كانه السعد يبسط خواطره وعظاته وغيرها أثوابا شتى تختلف باختلاف الموضوعات التي يطرقها ونجده فيها فتارة يسمو به خياله إلى أرفع مكان من سماوات الشعر وتارة يقتصر فيه على الأقاصيص المنثورة أو المنظومة وتعم مدفوع في ذلك بأسلوب أدبي زمانه بصرف النظر عما إذا كان مجددا فيه كما سنراه فيما بعد وبما كانه لنكاته من بعد النظر

---

(١) بستانه ٢٥ (٢) بستانه ٢١ ، ٢٢ (٣) بستانه ٢١ ، ١٥٥ (٤) بستانه ١٧ - ١١ - ٠٠ وجلستانه ٢٦ - ٦٥ - ١٤ - ٩١ - ٩٠ (٥) بستانه ١٦١ (٦) بستانه ١٥٩ وجلستانه ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٤

ودقة الملاحظة وقوة الاستنباط .

وعلى كل حال فقد كانت عادة السعدي حينما يكتب أنه يجد أولاد الحقيقة حتى إذا وجدها كساها ثوباً أنيقاً من الصور الفتانة . وقد ذكر هو هذه الطريقة في صدر بستانه وأشار إليها أيضاً في خاتمة جلستانه : «وقد رصمت على أنه ترى لك نصحي بسلك البيان وأنه يمتزج مرير الدواء الذي وجهته إلى مرضى الأخلاق بعسل المزح .»

على أننا نورد هنا بعض الأمثلة على هذه الطريقة فمثلاً :

« إما أنه تقضي على صغار الثعبان بعد قتله وإما لم تدعهم ولكنه فر في الحال .»

فالحقيقة الأولى هنا هي أن المنتقم عدوك مهما كان ضعيفاً . أما الصور التي يغلف بها هذا المعنى فهي :

« إن من الحصى ما يتراكم فيكونه منه جبل . وإن من النمل ما لو اجتمع لغلب الأسد وإن من الشعرات التي لا تزيد

في سمكة عن خيط من الحرير لو أنك جدلتها لكانت أقوى من السلاسل ..»

وقد يقتصر في المعنى على صورة واحدة كقوله : «و يعد العقود حياة السعدى نقصا وهي كالوردة و لكنها شوكة في عينه ..»

وفي بعض الأحيان يسلك العكس فيخرج المعنى من نفس الصورة كما جاء في قصة الجلسة البديعة(١): «كانت السعدى فتى يؤثر فيها الحر في فصل الصيف فلجأ إلى ظل دار في طريقه ولكنه فتاة ناضرة خرجت فجأة من دهليزها وقدمت له ماء مثلجا ..»

وهذا الحديث واضح في ظاهره ولكنه للسعدى غرضا آخر منه وهو طمأ تصوف الذي يحرق قلبه وأنه بعيد عن أن يرتوي مهما كان هذا الماء عنده باردا ..

---

(١) جلسة ٩٢

وهكذا تدور مؤلفات السعدي حول الخواطر والصور على مثل ما أوردناه. ومع ذلك فإنه في بعض الأحايين يلجأ أيضا إلى المقابلة بين الأضداد في تعبيره فيخرج من ذلك إلى غايات موجزة في غاية الحلاوة ومن ذلك قوله (١): «ولم يكن في وسعي أنه اشتريت حمارا فقصدت إلى مسجد وأنا خربان ولكنني ما كنت أعيا زوجي وقمت عياما على رجل فقد قضيته شكرت الله على النعمة التي أنا فيها»

فهل ترى تصويرا أبدع من هذا التصوير وهو يضفي هذه الحكاية القصيرة سلسلة من المعاني الجزلة والموعظة الحسنة على مثل هذا الأسلوب الرشيق ومن ذلك أيضا: «تصدأ المرآة إذا قابلها الزفير ولكن زفرات الندم تجلو مرآة القلوب» (٢)

وهي مقابلة بديعة لا تقل جمالا عن المقابلة السالفة

---

(١) بستان ص ١٧٤ (٢) بستان ص ٢٦٠

وهناك حالة أخرى غير الحالات السالفة يتوسع السعدي في الفكرة عن طريق الإثبات والنفي كمدحه الكرم ثم تعقيبه هذا المدح مباشرة بذم البخل (١)

وقد يكون هذا التوسع في صورة محاورة بين شخصين أحدهما ينفي ما يثبته الثاني كتحاور الرجل مع ولده في السفر ومضاره (٢) وكذلك في الفقر والغنى (٣)

وكثيرا ما كانت حكم السعدي وخواطره تجري على ألسنة الأحياء والحيوانات كما كانه حاصلا في القرون الوسطى، على أنه كان يفعل ذلك مستنطقا الموتى، كالجمجمة الملقاة على شاطئ الدجلة وهي تخاطب صوفيا على سبيل الوعظ. (٤)

وكالمناقشة بين العلم والستار المنصوب على باب القصر وقد أخذ الأول يشكو للثاني أنه كل الحمل عليه وحده (٥)

---

(١) راجع الباب الثاني والثالث من البندنامة (٢) جلستان ٥ ١٨ (٣) جلستان ٩٢، (٤) بستان ٥ (٥) جلستان ١٤٧

وربما كانت هذه القطعة من مفردات القطع لما فيها من قوة الخيال والتأثير :

« وإذا بأحجار أخذت تتناثر على المائدة فتكسرت أوانى البلور وتحطمت الأوعية التى على شكل القرع وهكذا أخذ النبيذ يسيل على جوانب الأوانى كالأوزة المذبوحة يتدفق الدم من جرحها وكذلك القدر التى ظلت فى مرقدها تسع شهور فقد أخذ ما فيها يسيل على جوانبها وانشقت كذلك القربة من إحدى جهاتها فأخذت القنينة تحدر معها كالدم » — ومما يدل على مكانة السعدى أننا عثرنا على قطعة فرنسية يصور كاتبها صخرة كان ينحت فيها فنان تمثال الملك البرتينوه وكانت الصخرة تتألم تحت طرقاته وتشكو فقال لها إن هذه الطرقات هى التى تجعلك زينة الأجيال الخالدة .

وكنا نظن أن هذا أول خيال من هذا النوع فإذا بالسعدى الذى هو أقدم من هذا الكاتب بقرون

قد سبقه فيه حيث كان صوت الأنثى يخرج من بعض
نجوات الكهف راجية من الراعي أن يرفق بها وهو
يهوى عليها بفأسه (١)

ولو أننا أردنا أن نسترسل في إيراد الأمثلة
الدالة على مقدرة هذا الشاعر الفذ لاضطررنا
أن ننقل جل ما سطره ولذلك نكتفي بهذا الخيال
الأخير وهو أن أميرا أي في الحلم أو الأسلاف وقد
استحال جسمه إلى تراب الأديم الذي لمسنا
نظراته إليه .....

فهم إن خيال صامت ينكشف عن حقيقة أليمة
من حقائق الحياة من الفناء وتقلب الأيام وغدر
الدنيا وكل ما يمكن أن يخرج من خلال هذه الكلمات
من الحكم والعظات

---

(١) جلستانه ٢٥٧

ومع ذلك فقد اقتصرنا هنا على إيراد ما انفرد به السمدى من قوة الخاطر وأثره فى أدبه إمّا ما يشترك فيه مع غيره من الخيال فكثير

أما أقاصيصه فإنه كثيرا ما يضمنها الأمثال السائرة ليتعظ بها الناس على مثال الفريدى موسيه فى بعض ما وضعه .

أغراض القصيدة الشعرية (١٧٥)

صيغة الكتاب والشعراء (١٧٥) - طابع القصيدة الخامس (١٧٦) - غاية الأدب (١٧٨) - القصيدة والحب (١٧٩) - شعر الغزل (١٨١) - شعر الرثاء (١٨٥) - النعي على الشباب (١٨٥) - أساس السعادة في نظرة الحرية والتضحية (١٩٠) - التأمل في الحياة والرحمة بالمأساة (١٩٣) - المراثي (١٩٧).

ـ أغراض السعدى الشعرية ـ

إن نفوس الكتاب والشعراء لا تختلف عن نفوس غيرهم من الناس لأنهم بشر مثلهم إلا أنها تمتاز عنها في الشعور وتمتاز عليها في التهذيب وقوة التصوير وشتان بين رجل سافج جاهل بسيط وآخر له فوق هبة السماء هبة الاكتساب وقد تكلم الأول في شأن من الشؤون فلا يفهمك ولا يدري ما غرضك. وتكلم الثاني فيندفع في الحديث اندفاعا تحسبه ينبوعا صافيا عذبا أو شعلة متأججة ثائرة أو تيارة تفيضه أو تارها المضطربة شؤونا تطربك أو تبكيك وقد تشد أعصابك وقد ترخيها. مثل الأول كقطعة من البلور لا قوام لها ولا شكل حتى لا ينفذ منها النور ومثل الثاني نفس تلك القطعة مرت بيد الصانع الماهر فسوت جوانبها وعدلت سطوحها حتى أنك لترى وجهك فيها وقد رد ماؤها وانجلى صفاؤها وهي تعكس آلاف الصور

على سطوحها العديدة

وإذا كانت هذا الفرق ملموسا بين الشعراء وبين غيرهم من عامة الناس فقد تلمس أيضا فيما بين الشعراء أنفسهم لدى الدائرة التي ذكرناها وتكمن في الأثر الذي يتركه كل منهم.

نعم إن المؤثرات النفسية في الحياة واحدة وكل نفس ناسية حساسة عرضة لها ولكنها أوتار شاعرهم مع ذلك قد تهزها إحدى تلك المؤثرات فتخرج آثارا مختلفة متباينة لا من حيث جوهرها ولكن من حيث شكلها فتارة يكون هذا الأثر جافا وتارة يكون هادئا لطيفا إلى غير ذلك من شتى الصور والأشكال وذلك لأن كلا منهم مزود بمزاج خاص وطبيعة خاصة حتى أنك لتشعر بأن لكل منهم طابعا منفردا وشخصية مستقلة.

وهذا الطابع الخاص هو الذي تأثر به السعدي فاتجه أسلوبه إلى غاية معينة تنزهي دائما بالأخلاق. ومهما

كان معنى هذا الأسلوب فإنه كان دائما يستقر عند هذه الغاية حتى أنه في نفس غزله كان ينتقل فيه دائما إلى سيدة الحكمة والعظة .

وإذا كان السعدي كغيره من الشعراء قد مر بكل أدوار الحياة ومراحلها فذاق طعم الشباب وكويت جوانحه بشملته وأدرك سر الرجولية واعتدل والتف أخيرا برداء الشيخوخة ووقارها وكلها أدوار لها من الأثر ما يجب أن يكون واحدا عنده وعندهم. إلا أنه من يقرؤه ويقرؤهم يشعر بالفرق بينه وبينهم ويحس ما للسعدي من ذلك الطابع الخاص الذي أشرنا إليه .

ثم إنه كل من تكشف له حقيقة هذا العالم الزائل وتظهر له نقائص الناس داوجاعهم فتنصرف جهوده إلى القيام فيهم خطيبا واعظا وحكيما مصلحا لابد أنه وصل إلى ذلك بعد درس طويل وتجربة شاقة كانت نفسه

عندهما نصرها شؤونه هذا العالم المختلفة المتباينة قاسى
الألم حتى أدرك آلام الناس وحتى أشفق عليهم وبكى
لهم وربما كانه للطبيعة فضل عليه كما كانه لها الفضل على
برنارد سان بيير حتى أنه معنى الرحمة عنده كانه ينحدر إلى
أدنى الحشرات وهو الذى يتمثل فى ذلك بقول الفردوسى (١)
« لا تؤذوا النملة التى تحمل حبة القمح فإنها تريد أن
تحيا والحياة شىء جميل »

والسعدى يرى أن أجمل شىء فى الحياة هو الحب
حتى أنه أشهى الأيام عنده هى التى يقطعها به ورباعياته
فى الحب تتناول كل مراتب الشعور من المداعبة إلى الرجاء
المتقد إلى الغيرة إلى صرخات الألم وإلى غير ذلك
وهكذا يقول فى تلك الرباعيات (٢)
« لم يسعدنى الحظ فنشترك معا فى اجتلاء منظر السهل

---

(١) بستان ١١٤ (٢) رباعية ١١٩

ولقد قعد بنا الوجد عند حافة الغدير وكاد يودي لولا أنك تقتطفينه أزهار الأقحوان بينما أقطف أنا ورد خديك »

ثم تندفع زرقاء الشكوى الحادة واليأس المرير فيصيح « يا كنزا الخديعة لو أنني أقلت من يديك فإلى أين أذهب . إنني لا ألبث أن أعود لك » (١)

« أقبلي على لأملأ من لطفك عيني فإنك سبب سعادتي وهنائي . وكم أغرته عند غيبتك في مجرهمي ولكني حينما اتجهت لا تقع عيناي إلا على صورتك »

ثم يرجع إلى الطبيعة لعله يأنس بها في تلك الغيبة :

« يقولون إنه نسيم فصل الربيع العليل يحمل أرج الورد بينما الطيور تشدو والخضرة تكسو الرياض والزرقة تصبغ وجه السماء ولكنه هذا كله أبتر الحبيبة لا يحلو إلا في صحبتك » (٢)

---

(١) رباعية ص ١١٤ (٢) رباعية ص ٥٨

ثم يعود إلى أحلام الحب وما يقبل به ليوقظه القاسية : « قد رأيتني في تلك الليلة السارة أعصه على شفتيك الجميلتين ولكنني حينما استيقظت وجدت نفسي أعصه أصبعي »(١)

وقد اطلع صديقي الأستاذ الأديب محمود بك خيرت السكرتير بمجلس الشيوخ على هذا المعنى فأعجب به ونظم :

وذات دلٍّ شفني هجرها
تسخر مني ومنه أدمعي
قد أقبلت في النوم ترجو الرضى
والصفح عما كان منها معي
فقمت منه وجهي إلى جنبها
أدميه بالعض ولم تمنع

---

(١) رباعية ص٧٥

لكنني استيقظت أبكي وما
عرفت في نومي سوى أدمعي

ويحيره الناس بقبح صاحبته فيقول «إنه هذه الصاحبة التي تأذيني قلبي طعم الهدوء يقولون أنها دميمة وقد يكون هذا صحيحا ولكنه خيل لي أنه تكون دميمة في عيون الناس حتى لا يكون حبها شائعا بينهم وبيني» وهو دليل على سعادته بها وفرط غيرته عليها

هذه صورة من صور شعره في أيام شبابه أثبتناها هنا وهي لا تقنع بما كان له من قوة التعبير عما كان يجيش في نفسه الملتهبة الشاكية الباكية المعذبة ليس فيه صناعة ولا تكلف لأنها يفيض به الوجدان الصور التي يفيض به الوجدان

ومع ذلك فللمازني في قصائده العربية شعر غزلي كان يحاول فيه السير على نمط صفي الدين الحلي

وشهاب الدين محمود حيث تعمد المحسنات اللفظية والبديعية ولكنه مع ذلك لا يخرج عن السهولة والرقة اللتين تجدهما في شعر البهاء زهير ومن ذلك:

إن ليل الوصال صبح مضى ، ونهار الفراق ليل بهيم(١)

فإن هذا البيت مع ما فيه من المقابلة بين الليل والصبح بالنسبة للوصال والنهار والليل بالنسبة للفراق والضوء والظلام لا تأثم الأذن من سماعه ولا تنفر النفس مما فيه من الصناعة كأنما قد جاءت عفوا فلا يحسها السامع ولا يشعر بها .

وكذلك قوله :

هات العقار وخذ عقلي وما بقيت
لي نية تنقذني من قيد وسواسي
وأجل الظلام بشمس في يد قمر

---

(١) من قصيدته صفحة ٢٢٧ .

يحكى بوجنته محراب شماسى

أبيت والناس لهجعى فى منازلهم
يقظانه أذكر عهد النائم الناسى (١)

فإنه سمع هذه الأبيات النلائة لم يلبث أن يكر منه رقيبها كأنما العقار التى يطلبه قد استقر فيه وهو فوق ذلك صورة ماجد منه فى مبدره منه الأسى والتململ حتى طلب أن ينسى وساوسه عند الكأس وهذا عدا ما تضمنه البيت الثانى من جمال التشبيه وحسن التركيب ولطف الأسلوب بجعله الوجنة كالمحراب محلا لقبلات التقديس والاحترام ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف ما يعانيه فى ليله الطويل وهو يقظانه بينما الناس غمة أجفانهم بطيب الغمضه . ومع ذلك فلم يخل هذا البيت

---

(١) من قصيدة مطلعها «

من المقابلة والجناس الظريف.

ولقد تقتضي كل قوانين العربية إذا بنى على هذا النحو من البساطة والسهولة وألا يكون له التعقيد من زحمة حشو النظم حتى في هذه اللغة مع أنه غريب عنها. اقرأ له أيضا هذه الأبيات يرثي بها كمال باشا رسول سيدنا عمر الحادثة ويصف في هذه المرة بعين كل البلاغة في تآلف المعاني مع حلو اللفظ وحسن الاختيار

يا عين فابكي وأكثري الزفرا
في رزء من سمع الثرى ألفاه زخرا
في عامه كشف الورى عن سره الغدرا
يا عذولي فني الدموع لكم وإلى م
أنا لداعي الناس ولا أخشى الملاما (١)

---

(١) قصيدة ص ٢٧٧

ومن ألطف ما جاء بخياله في الوصف أيضًا
قصائد كالطوابع للدراية

قد ألفت على أكمام الزهور
فزادت [illegible] الزهور بالذكر سرائع التشابيه المبتكرة
والصور مما إلى أنها مفتاح للقلوب. وفي أدبه يلمس نفس
الحساس بجراحه قد [illegible]. وكان طاهر على بك مصر
قد بعث إلى أستاذه الشيخ حسن الجسر منشئ اللغة
العربية في مدارسه المدارس المصرية الجليلة في هذا
المعنى وبلغه عنه إلا في أنه منشئ مع حالة
المصريين حيث ما جاء فيه العلوم الحربية

كأنه الشدق زركشها ◆ على جريد القلوب ألفاظها

وإذا كانه السعد بعد الشباب والحب نعمة من
نعم الحياة فكم كبوة خيبة عليها بعد أن انضرم
عرفها وطالت دوائرها:

« إنني لست حظي لم يعد في يدي لو مال الشباب

فما عدت أصلح للعب واللهو . نعم لقد كنت أنا أيضا شابا وكانت حياة وجرى النقى يجرى فى عليها الورد والبلور وشعرى الدبوسى يتدلى فوق عنقى وطاقية من أنامل الحرير أحمر اعلاها ثقيلا على رأسى اللينة ان

وفى هذا الشعر الفارسى الذى جئنا بنثره يكمن على هذا العهد القديم الذى كان عنده يلهو ويلعب لا يشغله شاغل من شئون الحياة . ولكنه فى المرة حقيقة الحياة المرة فيبوح به

« لقد مرت الزهرة الجميلة التى وطئتها لم تذبل للأبد ولكنها الريح العاتية لفترة وهى مليئة بالأمل غير أنه ماذا يفيد الأمل الطويل إذا كانت الحياة قصيرة »(٢) .

وبعد ذلك يذكر فى موضع آخر الحقيقة

---

(١) بستان ٢٠ (٢) قصيدة ٧٤

« إذا ذهب الربيع بأغصانه فقد ذهب الظل ولم تبق إلا ذكرياتك والحسرة عليك . فيجب أن يقف الربيع عند ترويد أناشيده » .

وهي صورة من ما فيه من الندم والكآبة ضمن خيال راقيا وهو وقوف الربيع عند أناشيده حدادا عليك .

وعند ذلك نفيض به الأسى ويضطرب حتى ليرمي شهد الشباب بالبعد عند الأمانة :

« إياك أن تطلب الأمانة عند البليل لأنه كل مرة يقف عند زهرة غير التي وقف عندها من قبل »(١)

وأخيرا فإنك عند هذا الوصف المقبل تشعر العواطف المختلفة التي كانت تتطاحن في نفسه وهو يذكر الماضي الشهي الذي اندفنه في صدر الأيام مع المقابلة السيئة للدموع المثيرة للأشجان الذاهبة بالنفوس .

---

(١) عبقرية ٦٤

مذهب من يرون العبرة والموعظة (١)

« ولقد مع ساعده القوى فطحاء القبر فرأى فى جوف تلك الرأس التى كانت تحمل التاج وقد ملأ التراب حفر عينيها التى طالما ملأها النور وكانت تلك الجثة الهامدة فى سجى موتها طعاما للدود والعظام قد سدت منافذها الوحول . وهكذا صير الموت من هذا الجسم الذى كان من قبل رشيقا صحيحا يفيض بالحياة والقوة »

وفى هذا يقول أبو العلاء المعرى من قصيدته التى رثى بها جعفر بن المهذب (٢)

كم صائد عند قبلة خده
سلطت الأرض على خده

وحامل ثقل الثرى جيده
وكان يشكو الضعف من عقره

---

(١) ج ٤ ص ٢٥١ (٢) كتاب سقط الزند لمعجز أحمد بن عبد الله بن سليمان أول الجزء

وقد توسع دوماس الصغير في هذا الوصف في مقدمة روايته « لدوام أو كاميليا ». حيث ذهب أرمانه دوفال مع صديقه إلى قبر حبيبته مرجريت لنقل جثتها إلى قبر آخر:

« وكانت الصدأ قد غطى مسامير التابوت من أثر الرطوبة حتى لقى الحفاران عناء طويلا في فتحه. وعندما تصاعدت منه رائحة كريهة بالرغم مما كان منبثا فيه من النباتات العطرية فصرخ أرمانه. يا الله. يا الله. وقد ذهب لونه واصفر وجهه. أما الحفاران فتراجعا عندما بدا الكفن حتى ظهرت هلالات خطوط جسمها وقد تأكل أحد طرفيه فكشف عن إحدى القدمين...

وبعد فك خيوط ظهر فجأة وجه مرجريت ولكنه كان مخيفا لدرجة عجز على النظر إليه ومرعبا لدرجة لا يقدر لسانه على وصفه.

عيناها لم يبق منهما غير حفرتيهما وشفتاها لم يبق منهما أثر. وأسنانها بيضاء شديدة وبعضها إلى بعض

وتحمر وجنتيه سوداء وكأنه يلبس الحقيقة الجميلة
وقد تركت أثرا أحمر عند تجويف الذقن .

هذا هو الورد الأبيض الناضر الذي كان يشع
حمرة الورد والذي زانه قبل الاقتراب بالحياة ...
وما أجمل قول الشاعر وهو معنى قريب من هذا أيضا

يا قرب الحبيب فيك آفة
قل أراه وما تحمد إربا
فهي كانت عليك ألف ظل
أيها الورد لا تثقل عليا

وهكذا بهذا الورد الذي هو أزاهر السعادة في
شؤون الحياة المختلفة يرمز إلى إصلاح النفوس
وتهيئتها للسعادة . وعلى كل حال فإنه يرى أن أساس
هذه السعادة التي يتخبط الناس في فهمها هو الحرية
الشخصية التي تتذوق عندها النفوس شراب السكينة

والسوء حتى بلغ من حرصه عليك أنه يصح إليهم بالبعد عنه بعصمه الأعداء والحساد لأنه جسم الإنسانية هو وحده الذي يقع عليه الأثر السيء الناشئ عن هذا البغض ولذلك أن النفس متى خلت من الشواغل وذاقت حلاوة السكوت ولمست أخفى لذة الغرض كانت سبابه عندها أن تقيم في قصر أو كهف أو غرفة حبلة. ولكنه مع ذلك ينصح بالبعد عنه النوم الكثير لأنه يفسد عليك حياتك ولم يفعل السعدي ذلك إلا لأنه عرف ما لهذا العالم من الشواغل الصارفة بالنفوس عن طريق الهداية حتى ليقول: «كم من السنين ستمر بك بغير أن تفكر في المرور على قبر أبيك»[1]

وهو على ما عهدناه في قراءاته شغف بحقيقة وعلم أنه عالم متقلب ولذلك ينبه الأفكار دائما إلى هذه الحقيقة:

---

[1] رباعيات ٤٨

« لا تملؤه آمال الدنيا فإنك لن تملأه كالمرء يقاسي يصيد كل يوم ذبابا جديدا . ثم كيف يترك الدنيا نفسه قلبه عند مولاه فإنه يرزقه كل صباح خليلا جديدا » (١)

« ..... ولكنه لا يعرف هذه الكرة التي لا استقرار لها فإنها تدور أبدا ولا حبيب لا تكوبه فهو عندها » (٢)

وهكذا ترى الناس أمام هذا العالم الباطل وزخرفه الزائل تغلى قلوبهم كالقدر وعلى وجوههم مظاهر الابتسامات فلم يكلفوه البشاشة لعاشرهم « وأنه الفضل الأغبر » (٣) وفي رواية « هذا العالم دام محزنه وإن كانت مجملة » (٤) ولذلك يقول السعدي « يقطع الناس حياتهم في خياطة أثوابهم والاحتيال على طلب القوت اليومي فكيف ليقى . هؤلاء في النار يوم القيامة اسرفوا

---

(١) بستان ص ٥٩ (٢) بستان ص ٦٩ (٣) رياض ص ٤٤ (٤) رياض ص ٤٤

من قبل في إحراز أنفسهم "

وهي صورة لما يلاقي الناس في الحياة من شقاء .

ولكنه مع ذلك يذهب إلى أنه ما دام أمد على الإنسان أن يقطع القدر المكتوب له من أيامها فلم يفوته بغير عمل يكون من ورائه نفع . أنه في هذا المقام لا ينظر إلى قيمة الحياة من حيث طولها وقصرها وإنما من حيث ما قطعت فيه فقد تكون حياة المرء قصيرة ولكنه نافعة وهكذا يناجي نفسه ويناجي غيره : " فكرت ذات ليلة في أيامي المنصرفة فرأيت أن كل نفس من أنفاسي يصعد إلى السماء يأخذ معه جزءا من حياتي فيا أيها الرجل الذي بلغ الخمسين ولا تزال نائما هلا فكرت في الانتفاع بالأيام القليلة الباقية ألا علمت أن الحياة كالثلج المعروض تحت أشعة الشمس في الصيف "(١)

---

(١) مبتسن ص٩

« إنك لو عرفت قدر الحياة لندمت على أنك بعثرتها »

وفي الواقع أن نظر السعدي في الحياة مع بطلانها وزوالها نظر حكيم عاقل مجرب لقدر الحياة ما دامت ضرورة واجبا على كل إنسان أن يحياها وطريقا محتما عليه أن يسلكه فليسلكه سلوكا يحقق له العمل النافع المخفف لويلات الإنسانية وعذابها فهو على ما رأينا ينفر من الجمود وعدم الحركة والإقبال على ذهول المتصوفة وانجذابهم لقد هذا نفي في الحياة حركتها ونشاطها وينفر من المسغبة وتعذر الجوع لأن هذا نفي القدرة على القيام بعبادة الله والجسم السليم في الجسم السليم على أن في العمل المتواصل المستمر انصرافا عن التفكير والاسترسال في الخيال مما يدعو إلى اليأس والسخط والتشاؤم « لقد مرت أيام بلا نفع كما تمر الليلة بيد الكؤوس »(١).

---

(١) [illegible]

ولكنه لا يغيب عنه أنه لهذه الحياة أمدا وأنها مهما طالت فلها غاية وأنه كل يوم منه أيام ينقص من حكم الدهر بعد كنقص منه أنفاسها يخرج فلا يعود، وكالجبل الذي لو ظلت تأخذ منه حصوة حصوة آل به الأمر إلى الزوال،، وعند ذلك يقف لحظة بين الماضي والمستقبل تتحدر دموعه على ما فات ويرتجف قلبه لما هو مقبل فيصيح: «هل ترى بعدو قلبي فيخضر؟ خضرار هذا الغصن غدا فوقه قبري. كم قطعنا أيامنا الأولى فرحين هنا حاكين عند ذكر أيام هذه الدار التي مرت علينا قبلنا أشتات الأجيال ستكون مطية غيرها فيا أسفاه على ربيع حياة ولى في الخفة واللهو. لقد أنزلقت تلك الساعات السعيدة كما ينزلق البرق في سماء الهيف»(١)

---

(١) بستان ٢٤٤

وهكذا ينتقل السعدي إلى حالة من اليأس فيذهب كل مذهب في التصوير والخيال :

« ما هي الأيام حتى الرمت الأرض بخاع هذه الرأس التي طالما كانت مصنع الخواطر » (١)

وهو مقام فيه ما فيه من الحسرة على الحياة الزائلة وعلى حظ البؤساء مهما كانت قدره وعلى سلطان الأقدار وجبروت الموت .

ومع ذلك فإنه مهما في مثل هذا الموقف من الرهبة فإنه يسكب في قالب أنيق رشيق فيقول :

« إن الغصة لتكاد ترفع قامة الرجاء في روضة الحياة حتى تلفحه ريح الموت العاتية » (٢)

***

وللسعدي أيضا مراث لا حاجة إلى ذكرها ومنها هنا للأسف كثيرها من مراثي الشعراء ومع ذلك فهذه إحدى مراثيه البالغة في افتراعه الدولة العباسية على أثر غارة هولاكو

---

١) صاحبنامه ٥٠

٢) بستانه ٢٦٤.

٣)

على قصبتهم دار السلام يرثي بها المستعصم بالله ويستصرخ فيها النبي (صلعم) للهول الذي نزل بأمته. وهي نموذج ممتاز للأدب الفياض بالخواطر السيالة والوصف الملتهب والحكمة العالية:

« أيتها السماء دمعي طوفان ينهمر دماً على الغبراء فلقد غرب كوكب خصيبها المستعصم أمير المؤمنين »(١)

* * *

« يا رسول الله هذا يوم الفزع الأكبر والهول الأعظم فإما كنت ستقوم يوم النشور حقاً فقم الآن واشرب مصرع امتك »

* * *

« لقد سكبت نحور جواري القصر العظيم وغيد النعيم دماً على شبح الموت، فتمزقت نياط قلوبنا وفاضت بدماء الحسرة والشجون »

* * *

« الفوت .. الفوت من اليمين إلى الشمال، ومن اليسر إلى العسر ومن الابتسامات إلى الدموع !! ما كان يخطر ببال أحد من الدهر

---

(١) ترجمنا صدر المرثية عن إحدى قصائد السعدي الفارسية وهي التي أشرنا إليها.

(٢) القصائد الفارسية صفحة ٢٢٧

الكواكب في عكس مدارها وتصير ضياء الشمس إلى ظلمة الرمس»

* * *

ليرجع البصر كرتين: أولئك الذين شاهدوا جلال البيت الحرام الذي كانت رمال أعتابه الناعمة موضع رؤوس الساجدين من القياصرة والخواقين فلقد صارت الآن موطئ خيول المغيرين»

* * *

«أراقوا من عترة الرسول دماً طاهراً فسال زكيا ينتشر عبيره في مساجد الطغاة ومخاش الجبابرة»

* * *

«لصيرات أنه نطمع في السلامة والأمن بعد أن نضب معينها الهني. وما المرء وأصدقاؤه في هذا العالم إلا كأفاتم وفصه لا غنى لأحدهما عن الآخر»

* * *

«يا له من خطب فادح جرح الأذهان كلما بصارمه المسلول

حتى أصبحت مياه الدجلة الصافية تصطخب أمواجها
ثائرة محمرة خالصة الدم لو مضت في سبيلها لملأ وسع البطائح
وغيرها الدماء تتوارى في ذلك الثوب الأرجواني الرهيب »

* * *

« ما خلفه العويل والبكاء إلا للنكبة والشقاء وما كان
لنا أن نمطر تربة الشهداء مدامع الأحزان وأقل ما أعد
لهم عند الله أن يرفلوا في نعيم جناته »

* * *

« لعمرك ما كبت العيون جزعاً ولا جزعت القلوب أسفاً
ولكنه الحنين إلى مجد الإسلام والإخلاص لله مضى مع
الشهداء يستنزفانه ماء الشؤون لهول الفراق
وبعد التلاوة »

* * *

« وإذا كانت قد ذهبت العدالة والرحمة اليوم فلترقب
الغد القريب حيث يمضي الجميع إلى رب الجميع ويبعث الموتى

منه قبورهم إلى خالقهم دامية وجوههم والمة قلوبهم ونمت القصاص العادل ولات حين مناص »

* * *

« أى أحبابى لا تركنوا إلى الدنيا ولا تربطوا قلوبكم بها فإنما هى برق خلب وأمل يذهب :

« يوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر »

* * *

« لا تصرع الشجاعة قوة الموت ولا ينفع الحذر متى نزل القدر »

* * *

« والشجاع الكمى هو الذى يلبى داعى الموت إذا دنت ساعة الأجل . وعندها ينبو صارمه الهندى وتخونه فطنته وفراسته »

* * *

« ولا خير فى امتداد الحظ بعد سقوط شرفه كما لا تنفع

الكرة إذا انقلب السرج »

* * *

« تتقاتل النسور على جيفة الدنيا والكل آكل مأكول ومتى أحرزت نصيبا من العقل فجنب حظك من سهام هذا المترك وكن منه كالطير(١) الذى يقنع من الضوضاء والجلبة بنظرة الحكمة والاعتبار »

* * *

وعلى كل حال فإنه مرائى السعدى تمتاز بالعظة المتغلغلة فيخلد لأنها لا تفارقه قلما فى أى غرض يخوضه حتى أنه لما رثى عطاب أبا بكر خرج من رثائه إلى عظة الناس:

« انظر هنا إلى هذا الذى كان ملك الملوك كيف نثر الزمن تاجه وألقاه عن رأسه عند وسادة من التراب »

---

(١) طير فارسى اسمه سيمرغ

على أنه يتخيل أنه سيقف هذا الموقف فيرثي نفسه أيضا : « إنه الرياح التي تكنس أرض المقابر ستنثر آخر ذرة من ترابي » (١)

وصدق القول أنه سيفنى، لكنه لم يفن على فلسفة، وإنما كانت تيارات الحنو والرحمة تنطلق من نفسه نحو آلام الناس مهما كانوا، فشاعر مصري مثله الكبير أو صغيرها والضئيلة وحتى نحو الحيوانات والحشرات كلها سعة وكره عبد الملة وهكذا لم يكن السعدي شاعرا فحسب وإنما كان قلبا شاعرا .... أيضا

---

(١) بستانه ٢٥٠

أسلوب الشعر (٢٠٤)

كلمة تمهيدية (٢٠٥) - البساطة والوضوح (٢٠٥) - ارتباط الصورة بالمعنى (٢٠٦) - التوضيح بالتصوير (٢٠٧) - الصور المركبة (٢٠٨) - استعمال التشبيه والمجاز والمقابلة وغيرها من المحسنات (٢٠٨).

تعرضنا فيما سبق إلى شيء من هذا الأسلوب حينما تكلمنا عن السعد من حيث النشأة وما كان عرفناه أو نتناول طريقته على وجه خاص، وكنا ذكرنا ذلك لأهميته في ذلك الموضع لأن الرجل العظيم كالسعد وغيره يجري الناس دائما خلف آثارهم وأساليبهم وطرقهم وإذا لم يكن هؤلاء أولى بمثل هذه العناية فمن يكون جديرا بها، ونرى أقل أن هذه آثارهم تحفة من التحف يحرص عليها المغرمون بتقديم الرجال فيقتنونها ولو دفعوا فيها ما دفعوا من المال الكثير. وهكذا نرى المتاحف الخاصة والعامة حريصة كل الحرص على مثل هذه الآثار.

ولنضرب لذلك مثلا عند ما محمود باشا آلة وترية (بابا أفزنكي) للصانع الماهر «ستراديفاريوس» فقد حفت بها كل العناية حتى وضع لها كتاب ضخم صورت فيه تلك الآلة وصورا تاما ملونا على قدرها وضياع بعض أنوارها وذكرت إلى جانب كل مقاساتها وأوصافها

وممتازاتها والأبدع التي تناولتها والأثمانه العالية التي دفعت
فيها لتكون في الحقيقة كنزه من الكنوز وتحفة من تحف الصناعة .
وكذلك نرى قلمه من أقلام الكتاب الشهيرين أو محرره من محاربهم
مثل هذا الالتفات وفي الواقع أليس هذا القلم هو الذي
خرج من شقه مجهود ذلك الكتاب العبقريه وأليست تلك
المعاني هي التي كانت لعاب ذلك المجهود النادر النميه .
[illegible] يقصد الحكومات للنابغين من أبنائها دفعها إلى
[illegible] في مكانه خاص إلى جانب ملوكها ورجالها كالبابغويه

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

وإنما تكريم العلم والأدب واحترامهما وتقديرهما هو وحده الذي يدفع بالناس إلى مثل هذا الاتجاه الشريف المحمود.

ولا شك بعد ما سلف أن هذه الطريقة التي كانت لها الأفضلية في الكتاب تعد أيضا من أكبر الغايات التي يجب الوقوف عليها لأنها فضلا عن أنها أثر خاص فإنها كذلك طريقة قد تكون من غير الطرق الواجب اتباعها فهي من هذه الوجهة اكتشاف عظيم يجب أن يكون له محل من هذه العناية.

ولهذا فإننا نقف الآن في هذا البحث الأسلوب الذي كان يجب به قلم السعدي لإبراز تلك الكنوز من النصائح والحكم والعظات

* * *

ويمتاز السعدي أولا بالبساطة. نعم أنه كان يستعمل شيئا من المجاز والكناية وغيرهما ولكنه مع ذلك كان سهلا رائعا بعيدا عن التكلف والتعقيد فيخيل لك أنه ذلك المجاز وتلك الكنايات وما يتبعها من بعض الحقائق حتى لقد تضل أحيانا بين الحقيقة والصورة التي يقف إزاءها على ما أشرنا إليه فلا تدري هل كان كل منهما

ولو أننا تتبعنا أسلوب من جاءوا بعد السعدي سواء في النثر أو النظم كوصاف وعلى يازدي وعلى الأفضل حسين وايزكشاني نرى أنهم لم يمتازوا عنه فيما كان لأسلوبه من تلك البساطة حتى أنه ليعد قاعدة ثابتة سار عليها وحذا حذوها.

ولقد أتى السعدي بصور من أغراضه فيما كتبه باستعمال الصور الكثيرة فزينه الصور إذ هي أساس الوسائل التي يستعين بها وإذن فلنبحث فيها.

وإن الرأي قد اعتاد أن يربط كل معنى بغيره ثم يربط هذا المعنى بالصورة. (١)

«لكن يجب أن لا ندفع إلى قول بغير أن نفكر ونزنه فالكلام بالثوب لا يصح أن نقدم على قصه قبل أن ندقه في قياسه»

وهو أسلوب مع بساطته جميل ليس فيه تعقيد ولا غموض وقد وفق هذه الحقيقة والصورة بحيث يمكنه أن نتخيل معنى

---

(١) بتاريخ ٧٩

الحقيقة عن الصورة والصورة عن الحقيقة فإذا قلنا يجب
أن نفكر قبل أن نتكلم انصرف خاطرنا أيضا بغير تعب إلى أن
الثوب كذلك يحتاج قبل وضعه إلى التدفيه في مقاسه وكذلك
إذا حكمنا الأمر.

والسعدي يعنى بالصور في بعض المقامات كمديحه
لشمس الدين جوابي حيث يقول:

"يا عالم العلم ويا سحاب الوداعة وإمام الأخلاق الرضية
والسماحة ويا كوكبا في سماء الفضيلة ويا أيها البحر الفياض
بالنيل ويا بناء الصبر ويا شمس الإيمان وقبلة الإسلام"

إن الاكثار من الصور في مقام واحد أدعى إلى السآمة
ويكسب السعدي ما كان يفعله إلا قليلا وفي ظروف ضيقة وقد
لا يسعدني فيما عداها صورتين في سياق واحد كقوله في الجلستان
(١) "العالم الذي لا يعمل بعلمه كالشجرة التي لا ثمر لها والنحلة
التي لا يرجى منها عسل"

---

(١) ٢٢٦

والسعدى لا يتقيد بتبيين فى هذه الصور يتناول الاسم او حبها فتارة يأخذها عن لعبة (ميل) وهى لعبة فارسية فيقول :

« إنه وجه هذا الفتى بيد جبائل شعره للكرة العاج فى حفرة الملعب الأبنوسى » (١)

وتارة يأخذها عن القلم وهو يشبهه بطائر فيقول ما معناه :

« ما أسرع هذا الطير فى جريانه وهو فى كل لحظة يغس منقاره فى الدواة حيث يتساقط بعد ذلك ماء الحياة منه » (٢)

ولنكتف بهذا القدر بعد ذكر هذين الخالدين البديعيه :

« كيف أملك زمام دموعى وقد أرخته يد الصبر » (٣)

« ولقد جرفهم نهر النوم فى تياره » (٤)

وما كاد السعدى يقصر صوره على غرضه خاص بل كاد يسوقه فى كل غاية من غاياته فيقول فى الحسن :

« ألا ترى حمرة هذا الورد كخدود الحسان وغضونه هذا السوسن كجبائل العشاق » (٥)

---

(١) جلستان ص ٥٤ ، (٢) جلستان طبعة كلكتا (٣) شرح ٤٧ ، (٤) بستان ص ٦٤ ،

(٥) جلستان ص ١٤٧

« ولقد تساقط الندى فوق أغصانه الورد كما كاد يتصبب العرق من خد الفتى الجميل »

وفي السماء من الناس :

« انظر إلى هذه الأشجار التي تراها تزهو في قريب من أقمصة السماء في أيام الأعياد » (١)

وفي الحكم :

« إنه مخطوبة الحكم لدى وفاء لها عند خطابها » (٢)

وفي مقام عذاب المحبين :

« ما أشبه قلبه بجمرة من حديد محماة في النار » (٣)

وكثيرا ما يستمد الطبيعة بما فيها في أسلوبه فيشبه الفتاة البدوية والرجل الطويل بطول الشتاء والجيد بالموج والغزلة بين الجبال ورحمة الله بالأوطان والنسب بالشجرة المثمرة الواجب العناية بها والرعدة بخفقان ورقة الصفصاف .

---

(١) جلستانه ١١ (٢) جلستانه طبعة كلكتا ٤٦، (٣) جلستانه ٥٠،

« لقد انغرس البياض في قلوبهم كما ينغرس الخاتم في الشمع »(١)
« يحنو رأسه كما ينحني السمار تحت المطرقة »(٢)
« رزانة جوفاء كالطبل »(٣)

وكذلك يقول سيف الغضب وسهام الخصومة ونوذة الجد وكأس الحياة وسلسلة الكلام وحجاب الشهرة (حبيبة بريتك) وتمائم العفو وفي هذا يقول « جرت قلم عفوه فوقه صحيفة خطيئتي »(٤)

ولقد عاب بعضهم المستشرقين على السعدي اقتصاره على ايجاد الحقيقة أولا ثم البحث بالصورة التي يراها واستخلاص منه ذلك أنه خلع المعنى في نفس الصورة كأنه مجهول عنده ولكنه علل ذلك بأنه السعدي كأنه منصرف كل الانصراف إلى الوعظ فهو من هذا القبيل يعد من شعراء الحكمة. ومع ذلك فقد رأينا ما كان للسعدي من الدقة حتى أنه المعنى والصورة كأنه يصعب فصلها عن بعضهما كما في هذه الصورة الرائعة أيضا :

---

(١) بستان ١٨٩ (٢) بستان ١٦٥ (٣) بستان ١١٨ ومواضع أخرى (٤) بستان ١٠١

وقد لا تخلو تشبيهاته واستعاراته من الجمود والجفاف فإنه يشبه الفرس كما يشبهه الورد وهو تشبيه مبتذل عند الجاهلي فيقول: «كالفرس يتساقى على اللوب»(١) و«كالذبابة كلما طردت عادت إليه»(٢) وهو يشبه العالم الذي لا يبصر بعلمه بالشيء الذي يخلو بالجراب ولا يدله في يده الحب ويشبه الرجل المحمول بشهواته بالحمار الموحول كثيرا ما يقول حصاده الفصاحة. وفارس الحكمة ومبدأه المناقشة وساحة البراعة وفي بعض الأحايين يتعرض في أسلوبه إلى جسم البديع أيضا فيقول فقص الجسم وطير الروح ولسانه الاعتراض ومرآة القلب وإنه شعر اللحية يشبه جراة القلم وأنه قدم حياته الفرسخ وحول الموت (٣)

وكثيرا ما الأشياء المتداولة يدخل في تعبيراته أيضا ومن ذلك: «لا توسخ بالخطيئة ثوب الطهر» (٤)

---

(١) بستانه ٨١ (٥) بستانه ١٤٨ (٢) بستانه ١٥٤ (٤) جلستانه ٣٠٠

« لست أدري ما يخفيه كتاب الأقدار ولكني أرى أثر الدم في عنوانه »

وكذلك كما في هذه الصورة البديعة

« المال لا يبقى طويلا في أكف المعتنين ولا الصبر في قلوب العشاق ولا الماء في الغربال » (١)

لأن المعنى في الصورة الأولى مفهوم وهو الجود ومفهوم في الصورة الثانية وهو القلق وإذا كانت الصورة الثالثة مفسرة لهما لإرادة المعنى كان استفادته منها بغير الحاجة إليها.

على أن السعدي إذا كان قد وقع بمثل تلك الصور فإنه أيضا كثيرا ما يعنى المعاني ليس فيها شيء من ذلك كقوله:

« لا يحصد المرء غير ما زرع » (٢) و « كل إناء بما فيه ينضح » (٣) و « الشر يحيط بصاحبه الحكيم » (٤)

---

(١) جلستان ٤٩ (٢) بستان ٥٠

(٣) بستان ٨٠ (٤) جلستان ١٩٧

حكم السعدي على عصره

٢١٤

كلمة تمهيدية (٢١٤) - إقبال السياح على شيراز (٢١٥) - الحياة في شيراز (٢١٥) - الحمامات (٢١٥) - أسواق شيراز (٢١٦) - السيدات والمتسولات (٢١٧) - مشارب الصوفية (٢٢٠) - الملاعب (٢٢٠) - طريقة الحياة عند كبار الناس وعند الفقراء (٢٢٠) - مكانة هؤلاء من قلوب الشعب (٢٢١) - مظاهر الاحترام للمتوفين - رأي السعدي في عصره ومعاصريه (٢٢٣)

حكم السعدي على عصره

رأينا أنه نثبت هذا البحث هنا لأنه رجل قدير كالسعدي خير من يترك لنا أصح صورة عن أهل زمانه ورأيه فيهم وفيهم كثير الفضل وخدمة للتاريخ وكثيرا ما يزري الحكم على الشرقيين وعلى تفكيرهم بأتينا على ألسنة السياح من المستشرقين الذين يجوبون الأقطار والأمصار وكثيرا ما يخطئون إما لقصر المدة التي يقضونها فيراقبون بعجلة دقائقه لفاتهم وتعدد العجائب وقد يخطئون في الحكم على قريب قليل منها لأنه ضئيل القوم الذين أوتوا نصيبا وافرا من العلم والصبر يجري وراء الحقيقة أبعد الناس عن التعصب الذميم بمعناه المألوف سيما أن الحقيقة لا تتقيد بزمان أو مكان.

ومن البديهي أنه ليس لأحد أن يجعل الحكم على أمر من الأمور - إلا إذا فهمه وألم بأطرافه - والحكم على الشيء فرع عن تصوره. ولذلك كان علينا أن نثبت حكم السعدي على أهل

زمانه أن نذكر عنه لسانه طرفا مما كانت عليه شيراز في ذلك العهد وكنه ذكر شيراز فقد ذكر إيرانه بجملتها

وسنرى أن السعدي لا يسير على خطى غيره من المؤرخين من أهل الشرق (١) فيكدس الوقائع تكديسا ويذكر الحوادث ذكرا مجردا وهكذا يكون الطباع قليلا بعيدا عن روحها وعن روحه من حيث تأثره بها وحكمه عليها.

ولم يتعرض السعدي في الجملة والبتة كثيرا لشيراز من حيث موقعها ومبانيها مما يدخل في دائرة علم وصف الأرض (الجغرافيا) ولكنه يمر على الأغلب بياتها وصركاتها (وهو خير ما يصل من طريقه الى إيراد صورة صحيحة عن أخلاقه أهل زمانه وعاداتهم).

---

(١) لقد قصدنا المؤرخين بطريقة التعميم فإنه منهم من وضعوا كتبهم في الأخلاق والاجتماعيات والتاريخ على أساس تحليلي عامر نذكر منهم الكاتب القدير محمد بك المويلحي صاحب كتاب حديث عيسى بن هشام والصحفي أحمد بك حافظ عوض في كتابه فتح مصر الحديث

وهكذا تراه يذكر إقبال السياح عليها وهم سائرون في الطريق الموصلة إليها على سفاف وظلة يحمدها أناس خصصوا لذلك وبنيانهم ناعرة تؤجر منهم تلك السفاف والدواب أقدامهم مضرب السير والطريق يقطعها أولئك الحمالون المالكة على أقدامهم وأجسامهم عرضة للريح والأمطار والشمس (١) حتى إذا بلغوا شيراز وقد أقبل الليل وجدوا بشراسة الخانات المفروشة تستقبلهم فيباتون إلى الصباح نوما هنيئا تحت أغطية من الفرو. أما الفقراء منهم المتقلبون فلا يجدون غير الطريق والسقايا معدة لاستقبالهم (٢)

وكذلك حال أولئك الرجل المترفيه إذا قصدوا إلى حمامات السوء فهناك ينتظرهم الاحترام والإكرام والنعيم والخدم يتزاحمون على القيام بما يطلبون وهم منتشرون تحت أسقف الصيدلة زينت بنقوشه في ألوان زاهية وسلسلة

---

(١) بستان ٢٠٠ (٢) جلستان ٢١

تمثل صورة بصفة الشيطانية (١)

ولزيادة الإمعان أيام خاصة في الأسبوع لزيد خلط فيها غير السيدات ... إضافة صفة السعدى مع مقارنة جميلة :

« إنني ... أسبوع انتظر إلى المائدة وعليها شهى الطعام كما ينتظر الفتى الأعزب إلى الحمام في اليوم المخصص للسيدات »

وهكذا ينتقل السعدى بانتقال السياح إلى وصف الأسواق وما عليها من الإقبال والزحام بينما المحتسب يمر في ... الكرخ يسوقه من يقوده في الميدان إلى ... (٢)

أما التجار فتراهم جالسين في حوانيتهم ولا هم لهم إلا الكسب من أى طريق ولو كان في ذلك خسارة المشترين بغشهم أو خسارة جيرانهم من التجار أمثالهم بحكم التزاحم (٣)

ومن هذا نرى أن هؤلاء التجار ما كانوا ليوقفوا نظام النقابات ولا قاعدة العرض والطلب حتى يضبطوا الأسعار

---

(١) بستان ٩٠ (٢) بستان ٩٤ (٣) بستان ٢٠٦

تتقف عند حد معين يرتفع أو ينخفض تبعا لهذه القاعدة.

وأهم ما يلفت السعدي النظر إليه كثرة السيدات في مثل تلك الأسواق وعلى الأخص أمام هوانيت الأقمشة والحلى والأعطار مما يدل على أن النساء في كل عصر ومصر تستميلهن هذه المعروضات حتى كنه يذهبن بأنفسهن لا تتأثر مما كان ينتقده السعدي فيقول «لا تستعمل من النساء غير السوداء وإذا شرعت امرأتك تذهب إلى السوق فلا تأخذ لك رحمة في معاقبتها»(١)

ولا يلام السعدي على هذه الشدة في مثل ذلك العصر البعيد الذي كان لدولة الحجاب فيه شأنه.

ومع ذلك فمن ذا الذي يمكنه أن يضبط نفسه أمام الجمال والحسن الرائع فيحول حتى بينه وبين النظر «إنني لما مرت امرأة جميلة وقفت عينها وقد ولى

---

(١) بستان ٩٦

عهد شبابي » (١)

أما رأي السعدي في الحجاب فظاهر من قوله :

« كم يظهر هذه القامات تحت الخمار . حتى لو رفعته ذعرت . ثم ما أحاجبه الجميلة التي كالبدر بالذؤابة . ولكن من الأسف أن ذوات الوجوه الساحرة والحديث السكري يختفين تحت هذا الخمار . وعلى كل حال فالحمد لله الذي جعله سدا بيننا وبين الدميمات » (٢)

أما السفور فنراها مكتظة بكافة الطبقات حتى الأطباء الذين يجرون عمليات الجراحة للناس ووضع اللبخ على أبدانهم على قارعة الطريق لا كما هو جار الآن في العيادات والمستوصفات والأيوم السوء لهؤلاء فهل إلى تجد فيه أيضا من يحتفوه بغير التجارة كالطبيب يعلم السيما والمشعوذين من حي الأسنانه وكذلك المتصاعين

---

(١) ماجية ص١١٦ (٢) ماجية ص٢٩

وبنات الهوى (المواس) وهم يمشيه بجذر خشية أن تقع عليه عيونه رجال الشرطة.(١)

ولا ينسى السعدي منفذا آخر هو فريق المشتغلين بالكيميا الذي يطلق عليه علماء الإفرنج الآن (alchimie) ولعل (أل) هنا هي أداة التعريف في اللغة "عربية" ولكنه السعدي يتناول هذا الفريق بأسلوب تهكمي يدل على مراده منهم فيقول "ترى المشتغل بالكيميا ماشيا في الطرقات بالية تدل على ما هو عليه من الفقر والبؤس وهو يعتمد على السعادة من طريق الأمل"(٢) يريد أن اشتغالهم بما هو الذي أفقرهم فهم يشتروه الغني الموهوم بالشقاء الواقع.

نعم إن العلم الحديث كشف لنا كما ذاع عنه عدم استحالة صنع الذهب من الزئبق ولكنها محاولة تستنفد أضعاف ما يحصل عليه من المشتغلون به وهي على كل حال

---

(١) بستان ١٠٩ (٢) بستان ٩٠

تظريه تعد فى أول لحضولترا .

و إلى جانب حوانيت التجار مشارب القهوة ينقطع إليها الناس فيقضونه الوقت فى شرب النبيذ المطبوخ وفى لعب النرد والشطرنج حتى تحين ساعة تناول الطعام (١)

وعلى ذكر الألعاب يتعرضه السعدى أيضا لسباق الخيل عند أبواب المدينة واللعب فوقها (٢) بعصى طويلة وكرات يقذف بها إلى مسافة معينة (٣) وإلى جانب ذلك المصارعة والقنص والتبارى برمى السهام (٤) والصيد الذى لا يزاوله إلا أهل الطبقة العالية (٥) من الأمراء وغيرهم . ولكنهم لا يزاولونه على مرأى من الناس بل فى الفلوات فى ساعات فتورهم التى يقطعونه الحياة الناعمة فيها بين الجوارى الحسان الغارقات فى الحلى وعلى أصوات الغناء من دون لزوم المبالغة فى تقصيه بالأعطار .

---

(١) جلستان ١٠٦ (٢) جلستان ١٨٧ (٣) بستان ١٧ ، (٤) بستان ٧٤
(٥) جلستان ١٧٥

أما مظاهر خروج هذه الطبقات سواء إلى ساحات القتال أو إلى الفلوات للقنص والصيد فحدث عنها ولا حرج بين صفوف الخدم والجنود وعلى أصوات المزامير والطبول

ولكنه ما هي مكانتهم من قلوب الشعب وهل هم محل محبة وأهل الاحترام؟ سؤال يجيب عليه السعدي بسلسلة من الخواطر على أساليب متعددة تبعا لما يقتضيه كل خاطر. وهكذا يقول: (١)

«كان أحد المتصوفين الفقراء يدعو بعض المساكين في فضل حذائه فلما أبصر به أحد القواد جذبه من كمه تعالى الله فظهر لي حصانه»

وكذلك يقول: إن الغني المحب لنفسه لا يسمح من أن يلقى التراب والقاذورات على بيت جاره الفقير (٢) وشتان بين هذا الغني مع ذلك الجار المسكين

---

(١) الحكايات ٢٠٧ (٢) الحكايات ٢٠٩

أما مظاهر خروج هذه الطبقات سواء إلى ساحات القتال أو إلى الفلوات للقنص والصيد فحدث عنها ولا حرج بهيه صفوف الخدم والجنود على أصوات المزامير والطبول.

ولكنه ما هي مكانتهم من قلوب الشعب وهل هم محل محبة وأهل الاحترام؟ سؤال يجيب عليه السعدي بسلسلة من الخواطر على أساليب متعددة تبعا لما يقتضيه كل خاطر. وهكذا يقول: (١)

«كان أحد المتصوفين الفقراء يدعو بعض الأمراء في نفل جهارا فلما أبصر به أحد القواد جذبه من كمه تعالى الله فطمر لي حصانا»

وكذلك يقول: إن الغني المحب لنفسه لا يسمح له أن يلقى التراب والقاذورات على بيت جاره الفقير (٢)

وشتان بين هذا الغني مع ذلك الجار المسكين

---

(١) جليس الأمير ص ٢٠ (٢) جليس الأمير ص ٢٠

وبينه فردريك الأكبر ملك بروسيا مع مساواته سوى الطحاله
مع أنه ملك حتى إذا أبى ذلك الرجل الفقير أن يفرط في
مكانه طاحونته ليبيعها فردريك في قصر بوستدام وصاح
فيه: ألا تعلم أنه في وسعي أخذه بالرغم منك صاح هو
أيضا: هذا إذا لم يكن في برلين قضاة! وعند ذلك تركها
له واستمر بقاؤها كالقرحة في خد ذلك القصر. وأنه
يعثر على هذا الرجل وهو أحد أفراد شعبه.

على أن مثل هذا العدل قائم أيضا عند كثير من
ملوك الشرق وحسبنا عدل عمر بن الخطاب. وإذا كان
فردريك دل تعرفه على عدله ولكنه لم يقبل زال بالظلم
مما لم يشاطره عمر بن الخطاب كان لا يخشى ملامة
في قسوة الحق حتى مع ولده وغير عمر بن الخطاب عمر بن
عبد العزيز حتى صار يضرب بهما المثل في العدل فصار
يقال عدل العمرين.

وينتقل السعدى بعد ذلك إلى ما كانه من أمر الوزراء مع ملوكهم فى شيراز فيجثون عند أقدامهم ووجوههم خاشعة مطرقة إلى الأرض (١) بل إنه غير الملوك أيضا كانه لهم مثل هذا الاحترام المتجاوز حد الكرامة كالقضاة والكتاب (٢) وموظفى الديوان . وما ذلك إلا لأنه الحاجة والمصلحة يصادفانه فى ضعيف الإيمان فتراهم يحطون ذل الخضوع وبيع الكرامة فى سبيلهما بل يفعل ذلك بعضهم دفن المتصوفة حتى يتساءل السعدى : « ما الذى ذهب بهذا الصوفى إلى قصر الوالى ؟ (٣) ثم يرد على نفسه قائلا : « إنه من الناس من هو مضطرب ظاهره خاشع باطنه ولكنه الفقر الذى حز إليه فشمت فيه ظواهر الناس وخبثت بواطنهم » (٤)

---

(١) جلستانه ٢ ، ٤ (٢) جلستانه ٥ ، (٣) صاحبقرانة ٦٩ (٤) جلستانه ١٦

وهكذا يجتهد السعدي من أمثال هؤلاء
الدجاليه الذين لا لوم لعقيدتهم والاثبات لإيمانهم
وعلى الأخص ذلك الطريق الخبيث الضار الذي يسمه
القلندريه حتى ليقول فيهم « إذا أقام أحد الفتيان
ليلة عند قلندري أخل بقطع الليل من طهارته » (١)
والقلندريه صنف أيضا من الطفيليين الذين
يفرطون في الأكل حتى لا يبقى في معدتهم فراغ للتنفس
فكأنه بطونهم قرب منتفخة ومن امتلأ إلى هذا الحد
فكيف تطمع عنده في التفكير والتأمل (٢)
هذا هو العصر الذي قال السعدي أنه الخير
هي التي قضت عليه أن يعيش فيه مع فساد أهله وملقهم
ونميمتهم ووشايتهم وكذبهم وخبثهم وما كانه فيه
من استبداد الأمراء وموت نفوس أهله حتى تمنى في اللحظات
لو أنه سرعان ما يصيب ظهره ذلك الغرب السافل في بقومه »

(١) بستانه ٢٠٠ (٢) بستانه ٥٦

مصادر الكتاب

١ - تاريخ الأمم الإسلامية - للعلامة محمد بك الخضري طبع مصر بمطبعة المعارف ١٩١١م

٢ - تاريخ التمدن الإسلامي - لجرجي زيدان - مطبعة الهلال ١٩٠٦م

٣ - تاريخ آداب اللغة العربية - لجرجي زيدان - مطبعة الهلال ١٩١١م

٤ - آثار البلاد وأخبار العباد - تأليف الشيخ زكريا بن محمد بن محمود القزويني طبع جوتنجن ١٨٤٨م

٥ - تاريخ إيران - تأليف شاهين كاترفوس طبع مصر بمطبعة المقتطف ١٨٩٩م

٦ - دائرة المعارف - تأليف البستاني المجلد التاسع طبع بيروت ١٨٨٧م بالمطبعة الأدبية.

٧ - دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي.

٨ - تاريخ الكامل - لعز الدين ابن الأثير الجزري. طبع بالمطبعة الأزهرية ١٣٠١هـ

٩ - تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري - طبع بالمطبعة الحسينية المصرية.

١٠ - رحلة ابن بطوطة.

١١ - تذكرة الشعراء لمناقب وأحوال شعراء العرب والعجم تأليف مير دولتشاه السمرقندي ٨٩٢هـ. بقلم تصحيح بدار الكتب الملكية تحت رقم ١٣٤ في التاريخ الفارسي

١٢ - خلاصة لطائف الخيال لمناقب شعراء العجم تأليف محمد نصير بن محمد جعفر الفسوي. بقلم تصحيح بدار الكتب الملكية تحت رقم ٤٨

١٣ - آثار عجم تأليف فرصت حسين شيرازي طبع الهند بمطبعة صفدر بمبای ١٣١٤هـ

١٤ - المعجم في آثار ملوك العجم تأليف فضل الله بن عبد الله ١٣٥هـ بقلم تصحيح - دار الكتب الملكية تحت رقم ٢٦

١٥ - قاموس الأعلام لشمس الدين سامي بك - الجزء الرابع مطبوع بمطبعة مهران باسم آنجاق ١٣١١هـ ص ٣٧٧٠ (باللغة التركية)

١٦ - لباب الألباب تأليف محمد عوفي يزدي لمجلد أوروبا

١٧ - مختصر العجم لشبلي النعماني بمطبعة معين عام أجرة ١٩١٧م

١٨ - حياة سعدي تأليف ألطاف حسين حالي طبع محمد بن يوسف بمبي ١٨٩٣م.

١٩ - تذكرة الشعراء للسير جورا أوسلي

20 A Literary History of Persia . By Edward G. Browne M.A., N.B., F.B.A. London 1906

21 A History of Persia . By Lieut-Col. P.M. Sykes c.m.g., c.i.e. London 1915.

22 Encyclopaedia Britannica . eleventh edition Combridge University Press.

23. La Grande Encyclopédie vol 28 Paris.

24. Essai sur Le Poète Saadi . xis . Libraire Paul Geuthner , 13, rue Jacob, 13 — 1919.

ومما لا يخفى أن مؤلفات السعدي كانت من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها - وهي التي ذكرناها بالتفصيل عندما تعرضنا لآثاره [راجع صفحة ٧٧]


أعلام الكتاب

أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيها
حرف الألف	وهو بوجه التقريب في كل صفحات الكتاب
١ السعدى	٢٩
٢ ابن الجوزى	١٠٦ ١٠٥ ٦٥ ٦٧ ٦١
٣ الفردوسى	الخامس والعاشر
٤ المحقق الطوسى	١٦
٥ أوحدى	١٨
٦ أنورى	١٨ ٦٥٦
٧ أبو بكر الخوارزمى	٢١
٨ أبو بكر [illegible]	٢١
٩ أبى يزيد البسطامى	٧١
١٠ أولى إيرس	٨٥
١١ ابه المقفع	١٠٠
١٢ ابه أبى زند كاو	١٠٠
١٣ الطرطوشى	١٠٠
١٤ ابه خلدونه	١٥١

A.U.B. I.S.M.S. LIBRARY

أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيها
١٥ المأمونية	١٦٦ ، ١٦٦
١٦ الملك الصالح	١٦٦
١٧ أنوشروان	١٦٧
١٨ أنو شيروان بالكاف	١٦٧
١٩ ابن بطوطة	٢٥ ، ١٦ ، ٧٠
٢٠ أبو بكر قتاغ خانه بن سعد الزنجي	١ ، ٢ ، ٤ ، ٦ ، ١٦ ، ٦٧ ، ٦٧ ، ٦٧ ، ١٦٧
٢١ أباقاخانه بن هلاكو خانه	٥١ ، ٦ ، ٥٠ ، ٨١
٢٢ أحمد خانه بن أباقاخانه بن هولاكو خانه	٦١
٢٣ أمير سعيد	٦٠
٢٤ الإمام أبي حامد الغزالي	٥٦ ، ٩٥ ، ٢٠٦
٢٥ أبو الطيب المتنبي	٢٢
٢٦ أتابك ظفر الدين تكلا	٢٤
٢٧ أبي علي الحسين بن علي بن أحمد النيسابوري	٥٦ ، ٧٦ ، ٥٢٦
٢٨ بنظام الملك قوام الدين الطوسي	
٢٩ السلطان ألب أرسلان	٧٠
٣٠ أبي الحسن محمد بن هلال الصافي	٧٠

أسماء الأعلام		الصفحات المذكورة فيها
البرباء زهير		١٨٤
أبو العلاء المعري		١٨٨
أرسطو وقال		١٨٩
أوفيد		مقدمة ج
إمامي الهروي		٦٧
العلامة أندرى دوربير		٧٠
أوستباخ		٧٠
أ. رودجرس	A. Rodgers	٧٤
أ. دوبير	A. Du. Ryer	٧٤
دانيل إليث	De Euth	٧٦
أوسان المؤرخ		١٤٠

حرف الباء

الأستاذ براون		٣، ٤، ٧
جلال الدين الرومي		١٥، ١٧، ٥١

أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيها
فرخ الدين زكريا	٨٥
ب . دورن B. Dorn	٧٤
بابيير دى ميناره Barbier de Meynard	٧١ ، ٧٢
برناردان دى سان بيير Bernardin de Saint Pierre	١٤٨
برهلول	١٦٦
بهرام جور	١٦٧
بديع الزمان الهمذانى	٨٨
بلزاك Balzac	٦٠
حرف التاء	
حرف الثاء	
ثنائى	
حرف الجيم	
سر جور أوسلى	٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦
جلال الدين الرومى	١٥ ، ١٧ ، ٢١
جنزبيه المهدى	١٨٨

	أسماء الأعلام		الصفحات المذكورة فيها
٥٦	جورج سند		٢١
٥٧	ج. ت. بلتس	j. T. Plutis	٧٤
٥٨	جونسون	Johnson	٧٤
٥٩	جوندلين	Gwendolin	٧٤
٦٠	جنتيس	Gentius	٧٤
٦١	جيمس روس	James Ross	٧٥
٦٢	جنوافسكي	Gwiwinowski	٧٥
٦٣	الخواجه جبرائيل بن يوسف «بك قزيا الخلفي»		٧١
٦٤	مدينة بولانيه		٧٦
٦٥	ج. س. دنقي	G. S. Dwie	٧٤
٦٦	جلادوين	Gladwin	٧٤
٦٧	جنتيس	Gentius	٧٤، ٧٥
٦٨	الطبيب جالينوس		١٦١
٦٩	الفلكي جوستيار		١٦١
٧٠	جنيف		١٦١
٧١	ع. مرلعل		٦٠

	أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيها
	الجيم	
٧٤	الملك جورج الثالث	٥٩
٧٤	السير جور أوسلى	٧٤ ٧٦ ٩٦ ٥٩٦ ٦١٦ ٦٩٦ ٧٠ وتصويره
٧٤	جامد جاك روسو	٩٤
	الحاء	
٧٥	حاتم الطائى	١٦٦
	الخاء	
٧٦	خواجه شمس الدين جوينى	٨١ ٦٢٦ ٥١
٧٧	الأمير خسرو الدهلوى	٦٦ ٦٥
٧٨	خواجه مجد الدين لعبر	٦٧ ٦٩٦
	الدال	
٧٩	Dimotica	٧٥
٨٠	Daigre	٧٤
٨١	دانز « تنصل بالسياسة »	١٤
٨٢	دكتور إث [illegible]	٧٦
٨٤	داريوس	١٦٧

	أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيها
٨٣	دولتشاه	١٦٥، ١٦٦، ١٧٦
٨٤	داستانه	١٦٧
٨٥	دوماسو الصغير	١٨٩
٨٦	داود بن ميكائيل السلجوقي	٦٧
	الذال	
٨٧	ذا النونه	١٦٦
	الراء	
٨٩	رينانه	٦٧٠ مقدمة ف
٩٠	رستم	١٦٦
٩١	Robinson	٧٤
٩٢	Ruckert	٧٢
	الزاى	
	س	
٩٤	سعيد محمد الدرعه	٤٧
٩٥	ساده موسى الطحاده	٦٦٦
٩٦	سلفستر دى ساسى	٦
٩٧	S. Nunziante	٧٥

	أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيه
٩٧	Semelet	٧٤
٩٨	الأمير سعد بن زنجي	٥٤٦١
٩٩	**ش**	
١٠٠	Schacha و Weehard	
١٠١	شامي سروري سورة	٩٩
١٠٢	شير علي أفوسي	٨٥
١٠٣	شمس الدين حسين	٨١
١٠٤	شيلي	١٦٦
١٠٥	Shakespeare	١١
١٠٦	شرف الدين عبد الله	
١٠٧	**ص**	
١٠٨	صدر الدين محرر الواعظ	٤١
١٠٩	صدر الدين خوشنند	١٦٦
	ض	
	ضياء الدين السهروردي	٤١، ١٥٦

أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيها
ط	
ظ	
ع	
١١٠ علي بن شاذان	٤٦
١١١ القاضي عز الدين علوي	٤٧
١١٢ موفق الدين ابراهيم	٤١
١١٣ عزيز الدين أوحدي	٥٥
١١٤ علي بن أحمد أبي بكر البيزوتوفي	٩٠٦٥٤٦٧١٦٧٨
١١٥ علاء الدين جويني	٩١٦٥٧٦٥١
١١٦ علاء الدين خوارزم شاه	٦
١١٧ عبد القادر الكيلاني	١٦٦
١١٨ عمر بن عبد العزيز	١٦٦
١١٩ عمر بن الليث	١٦٦
١٢٠ عمر بن الخطاب «عليه السلام»	١٦٦
١٢١ الفرغاني علي	١٦٦
١٢٢ الشيخ علي بن الجارم	١٨٥
غ	

	أسماء الأعلام	الصفحات المذكورة فيها
١٥٤	غوستاف لبيون	٢١
١٥٤	غليدون	٨٥
	ف	
١٥٥	فريدون	١٦٦
١٥٦	فريد الدين العطار	١٠٩٦٧٩٦١٦١٥
	ق	
١٥٧	قطب الدين الشيرازي	١٦٦١٥
١٥٨	قابوس بن اسكندر	٨٩
	ك	
١٥٩	الأديب الفارسي كمال اسماعيل	١٧
	ل	
	م	
١٦٠	مولوي محمد رشيد	٧٨
١٦١	مجد الدين	٨١
١٦٢	ماركوس أورلي	٨٥
١٦٣	معروف كرخ	١٦٦
١٦٤	مجنون ليلى	١٦١

	أسماء الأعلام	الصفحة المذكورة فيها
١٤٥	الدكتور منصور فهمي	مقدمة ى
١٤٦	الأستاذ محمد الخضري بك	مقدمة ك
١٤٧	مصر الجديدة	٨٩
	ن	
١٤٨	نزار عبد القادر القباني	٦١
١٤٩	N. Diodati Nau.	٧٢
	هـ	
١٥٠	هنري ماسيه	٤
١٥١	هوراس	مقدمة هـ
١٥٢	هارون الرشيد	١٦٦ ، ١٦٦
١٥٣	مستر هارفنجتون	٧٨
١٥٤	هيرودس	١١
	و	
١٥٥	و. أوستولد	مقدمة و
	لا	
١٥٦	لافونتين	مقدمة هـ ١٨٦
١٥٧	**ى** ياوسيشو	١٧٠

اسماء الأماكن

	الأماكن		الصفحات التي وردت فيها
١٦	ألمانيا		٧٠
١٧	أمستردام		٧٠
١٨	العرب		٨٤
١٩	الشام		٨٤
٢٠	المدرسة الخانقاه		٥٧
٢١	الهند الشمالية		٤٧
٢٢	العراق العجمي		٤٠
٢٣	أصفرابه		٣٠
٢٤	الشيخ يوسف		٤٤ ، ٤٤
٢٥	بحر العرب		٤٥
٢٦	" القلزم		٤٥
٢٧	" الروم		٤٥
	الباء		
٢٨	برسلا	Bresla	٧٤
٢٩	خريطة بلاد فارس		٠
٣٠	" "		٦٥ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٦ ، ٦٤ ، ٦٥

ABK

الأماكن	الصفحات التي ذكرت فيها	
بغداد	١٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨	٢
بلخ	٦٦	٢٢
بحر عمان	٦٤	٢٢
بولونيا	٦٠	٢٤
بيت المقدس	٢٥	٢٥
التاء		
تركستان	٢٤ ، ٦٦ ، ٦٧	٢٦
تبريز	٦٤	٢١٠
الثاء		
الجيم		
جامع دمشق	٥٧	٢٨
الجنوية أو جنوا	٧٤	٢٩
الحاء		
حمامات شيراز	٦٩	٤٠

Genoa

	الأماكن		الصفحة المذكورة فيها
٤١	حي عابدين		٤٤
	الخاء		
٤٢	خطا		٦
٤٣	خورشيد		٤٤
	الدال		
٤٤	ديار بكر		٤٥
	الذال		
	الراء		
	الزاي		
	السين		
٤٥	استراسبورج	Straseburg	٧٠
٤٦	ستوتجارت	Stutgart	٧٠
٤٧	اشليسفيغ	Schlessuing	٧٥
٤٨	سومنات		٤٧

الأماكن	الصفحات المذكورة فيها

الشين

٤٩ شعب ...
٥٠ شعب ...
٥١ ...

الصاد

٥٧ صعدة ...

الضاد

الطاء

الظاء

العين

الأماكن	الصفحات المذكورة فيها
الغين	
غوطه (دمشق)	٥١
الفاء	
فرنسا	٧٠
القاف	
الكاف	
كاشغر	٦٠ ٦٤ ٦٦
كلكتا	٧٤
الكعبة المشرفة	٧٥
اللام	
لندن	٧٤
ليبزج	٧٤
الميم	

الأماكن	الصفحات المذكورة فيها
٦٠ مثمن	١٤٠ - ١٤٤
٦١ مستثنى المثلث المتساوي	٧٥
٦٢ مربع	٧٥

النون

٦٣ نصف	٩٥
٦٤	٨٥ - ٩١
٦٥	٩١
٦٦	٩٥ - ٩٦ - ٩٦ - ٩٦

الهاء

٦٧	٩٦

الواو

لا ي